82 | روايات عالمية

غبار النجوم

تأليف : نيل جايمان

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



الأديب البريطانى العبقرى نيل جايمان Neil Gaiman الذى سنقابله مرارًا فى هذه السلسلة .. إنه مؤلف ورسام قصص مصورة ومصمم جرافيكى .

اشتهر بسلسلة رجل الرمال وقصتى غبار النجم وكتاب المقبرة . الكتاب الأخير قمت بترجمته لشركة بلومزبرى لكنها لم تنشره قط ، وإن ظلت حقوق النشر معها .

ولد جايمان عام 1960 من أسرة تنتمى لشرق أوروبا هاجرت إلى بريطانيا ، وقد كانت أسرة يهودية لكنها غير متدينة ، بل تعتنق ديانة غير سماوية هى السيانتولوجية scientology .. تعلم القراءة فى سن الرابعة وتفوق فى المدرسة بشكل ملحوظ . وفى سن العاشرة قرأ الكتاب الذى ترك فيه أعمق الأثر : (سيد الخواتم) رائعة تولكين ، وحفظ تقريبًا (أليس فى بلاد العجائب) قصة لويس كارول . بعد هذا بسنين قرأ (يوميات نارنيا) لس. إس . لويس . كان هذا هو الوقت الذى قرر فيه أن يكون مؤلفًا .

عمل جايمان كذلك مع كاتب القصص المصورة الأسطورى آلان مور، وتعاون مع شركة مارفيل . على أن أشهر أعماله كان رجل الرمال .. وهو شخص يدعى (الحلم) له أخت تدعى (الموت)، وقد صدرت منها عدة أجزاء متتالية، ويعرفها المهتمون بالقصص المصورة جيدًا . هى سلسلة قصص تجمع بين السخرية والرعب فى مزيج فريد . ثم قدم سلسلة اسمها كتب السحر، وقدم الكثير من قصص باتمان . الحقيقة أنه غزير الإنتاج فعلًا، ومتابعة أعماله كلها عمل مستحيل . كان مولعًا بالقصص المصورة جدًا، والسبب أنها كانت مصدر ثقافته الأولى منذ تعلم القراءة. وكما قال : « كما أنها مجال بكر نسبيًا يمكن تحقيق الجديد فيه، بينما هناك عدة قرون سبقتك فى كتابة الأدب التقليدى ،فليس بوسعك أن تتميز ».

برغم هذا قدم روايات مهمة غير مصورة ، منها (غبار النجم ـ 1990) التى نقابلها هنا، وهى تمثل عالمًا تولكينيًا متكاملًا ، يذكرك بالأرض الوسيطة و(الآلهة الأمريكيون ـ 2001) التى كانت أنجح قصصه وأكثرها مبيعًا. وفى العام 2008 قدم (كتاب المقبرة) وهو قريب جدًا من كتاب الأدغال لكيبلنج . بدلًا من الطفل الذى تربيه الوحوش نقابل طفلًا يربيه الموتى !. ممتعة جدًا لكن لم أستطع تقديمها هنا للأسف بسبب أنها ملك لبلومزبيرى. يستعمل جايمان كذلك نفس الشخصيات فى روايات عدة . أى أن شخصياته

تظهر فى روايات مختلفة .

ومن أشهر ما كتب سيناريو مارس جايمان كذلك كتابة السيناريو .

(بيوولف) .

كما كتب عدة حلقات من المسلسل الخيالى الشهير (دكتور هو) .

يتبع جايمان بالضبط نفس طريقة السرد (رحلة البطل monomyth) التى ذكرها كامبل فى (البطل ذو الألف وجه) . سوف تشعر كأن القصة التى بين يديك هى بالضبط رحلة بحث بطل مما تكلم كامبل عنه . تذكر المراحل :

١ ـ البطل فى العالم العادى ، قد يبدو بريئًا غير ذى خبرة وغير مؤهل للبطولة. هارى بوتر اليتيم الخجول الذى ينام تحت السلم.

٢ ـ البطل يتلقى دعوة للمغامرة تقدمها له شخصية غير نمطية هى (المعطاء) (غالبًا عجوز أو قزم) . لوك سكاى ووكر يتلقى دعوة للمغامرة من أوبى وان كنوبى فى قصة حرب الكواكب . رئيس الشرطة العلمية يكلف (نور) ورفاقه بمهمة جديدة ... العميلة الجديدة تعرض مشكلتها على شيرلوك هولمز .. الساحر يخبر علاء الدين أنه صديق أبيه يرحمه الله .. هارى بوتر يتلقى الدعوة إلى مدرسة السحر ...

٣ ـ رفض الدعوة أولًا ثم قبولها ، وربما يضطر الناصح إلى توجيه ركلة

له كى يقبل ..

٤ ـ اجتياز البوابة الأولى إلى عالم المغامرة. لقد انطلقت العربة .. أقلعت سفينة الفضاء .. وقفت دوروثى بطلة (ساحر أوز) على أول الطريق القرميدى الأصفر .. ركب أدهم صبرى الطائرة إلى وجهته ..

٥ ـ اختبارات وحلفاء وأعداء . الصالون فى فيلم رعاة البقر حيث يعقد البطل حلفًا مع رفاقه ويتقاتل مع أعدائه.

٦ ـ الاقتراب من الكهف العميق، حيث مركز المعاناة . ثيذيوس يدخل الكهف ليواجه المينوتور .. علاء الدين ينزل إلى البئر ليبحث عن المصباح ..

٧ ـ المعاناة العظمى . هنا يعانى القراء اللحظة السوداء Dark moment خوفًا على مصير البطل الذى توحدوا معه ..

٨ ـ الجائزة (الحصول على السيف – التفاحة – الجوهرة – الميكروفيلم.. إلخ) . الآن صار بطلًا حقًا . هنا تكمن المتعة الكبرى ؛ لأنك لا تستمتع بالحياة أبدًا مثلما تستمتع بها بعد ما أيقنت بالموت ..

٩ ـ طريق العودة . يحاول خصومه فى انتفاضة أخيرة منعه من العودة بمكاسبه . إنه لم يخرج من المستنقعات أو غرفة الميكروفيلم أو قاعة المومياوات بعد ..

١٠ ـ انتصار جديد يطلقون عليه اسم (البعث) .

١١ ـ العودة بالإكسير . وهذا الإكسير قد يكون الكنز الذى دخل الكهف لأجله ، وقد يكون الحكمة ، وقد يكون العودة للوطن سالمًا بصحة جيدة .

لو طبقت هذه الخطوات على (على بابا) أو (الشاطر حسن) أو (أوديسيوس) أو (هركيوليس) أو أى بطل ملحمى تعرفه ستدرك أنها صحيحة ...

لكن جايمان ينكر بشدة أنه استطاع استكمال قراءة كتاب كامبل . وجد أنه من الأفضل ترك نفسه على سجيتها . فلا داعى لفهم التقنيات .. المهم أن يكتب ما يراه مناسبًا بلا خطة مسبقة .

يعيش جايمان فى الولايات المتحدة : وسكونسين منذ عام 1992. يقيم هناك مع زوجته وأولاده الثلاثة . وهو مستمر فى الكتابة .

د. أحمد خالد

حاشية

فى الريف الإنجليزى الناعس وفى فجر العصر الفكتورى ، تتحرك الحياة بيطء فى مدينة (وول) - الجدار - التى سميت كذلك بسبب حاجز صخرى يفصلها عن مرج قريب. هناك حراس يمنعون الناس من عبور هذه الفجوة. وفى هذه البلدة وقع تريستران ثورن فى غرام فكتوريا فورستر الحسناء. لكنها كانت باردة متنائية، كأنها نجم رآه يسقط من السماء فى أكتوبر. من أجل فكتوريا صمم تريستران على الحصول على هذا النجم ليهديه لها. هذا القسم الذى جعله يتجاوز السور فيدخل عالمًا يفوق خياله. لم يكن الوحيد الذى يلاحق النجم. كان هناك آخرون يرون فى النجم الشباب والجمال أو مفتاح مملكة عظيمة أو أسرار السحر الأسود.

الفصل الأول

وفيه نعرف قرية وول والشىء الغريب الذى يحدث هناك كل تسعة أعوام

كان هناك رجل يرغب فى تحقيق « رغبة قلبه » . وهى بداية غير جديدة بالنسبة للقصص . لكن ما جرى له كان غير معتاد . بدأت القصة كقصص أخرى كثيرة فى وول . المدينة هنالك منذ 600 سنة مبنية بالحجارة محاطة بغابة كثيفة ، هناك طريق واحد يخرج من وول وهذا الطريق يقودك للندن، لكن لندن على مسافة سفر ليلة كاملة .

سكان وول قليلو الكلام عامة ينقسمون لنوعين: الأهالى الأصليين بقامتهم الفارعة وسحناتهم الحجرية ، والذين استوطنوا وول بعد ذلك. شرق المدينة هناك جدار حجرى ضخم ، منه استمدت المدينة اسمها. من فتحة فى الجدار الحجرى ترى مرجًا وترى نهرًا .. وبرغم جمال المكان فإن أهل البلدة لم يكونوا يمارسون الرعى هناك . بل إنهم وضعوا الحراس على جانبى الجدار لمنع فرار الناس . وعمل الحراس هو إبعاد المتسكعين ومنع الأطفال من الخروج فالضياع فى المرج . فقط يسترخى الحراس مرة كل تسع سنوات عندما يأتى سوق ليقام فى المرج .

منذ أعوام كانت الملكة فكتوريا شابة عذراء وحسناء ، وكان مستر ديكنز يكتب قصته (أوليفر تويست) ، وقد أعلن مستر مورس طريقة لنقل الإشارات عبر الأسلاك .

فى هذا الوقت كان دونستان ثورن فى الثامنة عشرة . كان ذا شعر بنى

ونمش بنى وكان قليل الكلام . كان يعمل فى مزرعة أبيه ويحلم بالهجرة إلى لندن أو دوبلين أو أى مدينة كبرى لا تحدد فيها الريح مصيرك .

كان الغرباء قد بدءوا يفدون بمناسبة السوق، وامتلأت حانة (الغراب السابع) بالنزلاء . هناك كانت بريجيت كومفرى تعمل ، والناس تعتبرها أجمل فتاة فى العالم .

كـــان هنـاك جدل قريب بين تومى فورستر ورجل أسود العينين اسمـه (علّوم بيه) .. كانا يتشاجران وينويان القتال خلف الحانة من أجل بريجيت . تحمس القرويون ولم يهتم أى واحد بوقف المشاجرة بل بمشاهدتها .

حاول تومى أن يضرب الغريب .. لكن الغريب أمسك بقبضته الضاربة وطوح به ليلقى به فى الوحل، وهو يقول شيئًا بالعربية ..

عاد الغريب لبريجيت وانحنى أمامها وهو يضحك، لكنها تركته وهرعت نحو تومى لتساعده على النهوض . هكذا اتجه الغريب العربى لداخل الحانة وابتاع ـ بلمسة كرم ـ زجاجة خمر لتومى ..

لم يكن دونستان فى الحانة ليلتها . كان قد أمضى فترة طويلة يغازل حسناء أخرى اسمها ديزى همبستوك. كانت تقول له إنها تتوقع منه أن يتقدم لها ؛ لأن أباها لن يرفض .

كان هذا هو إبريل البارد . وقد امتلأت الحانات كلها، ونام الزوار فى الحظائر أو فى خيام ملونة نصبوها ، والبعض نام فى عربات تجرها الخيول .

في يوم 29 إبريل كان على تومى ودونستان أن يقفا للحراسة عند فجوة الجدار . وكانت مهمتهما أن يوقفا كل غريب وهما يلوحان بالهراوات ويقولان :

ـ « غدًا .. غدًا .. غير مسموح بالزيارة الليلة »

كان بعض الغرباء يحاولون تبادل المحادثة ، لكن الحارسين كانا يقفان فى شموخ شاعرين بالأهمية. وجاء لهما الطعام مع بريجيت وديزى .. ثم انتهت وردية الحراسة فذهبا للحانة.

الحانة كانت مليئة بكل الجنسيات .. وكانت هناك لغات غريبة وروائح أغرب فى الهواء . دنا منه رجل غريب طويل القامة يعتمر قبعة حريرية سوداء ، حيّاه ودعاه إلى بعض البودنج ، ثم قال له إن كل الغرف مشغولة فى البلدة ، فهل لديه مكان يصلح للمبيت ؟

قال دونستان :

ـ « لدىّ كوخ على حدود أرض أبى .. وقد منحه أبواى لى »

قال الغريب :

ـ « خذنى هناك »

لم يستطع دونستان الرفض . كان قمر الربيع مكتملًا والليل صافيًا. مشى الرجلان حتى بلغا الكوخ الخاص بدونستان. كان عبارة عن غرفة واحدة ومدفأة .. بدا الرضا على الغريب وقال :

ـ « أحب هذا .. سوف أستأجره منك ثلاثة أيام »

ـ « وكم تدفع فى المقابل ؟ »

ـ « جنيهًا ذهبيًا (سفرين) وستة بنسات فضية .. »

بدا هذا مرضيًا لدونستان .. لكنه كان يأمل فى نوع من السحر أو المعجزات بما أن هذا هو سوق وول . لذا قال له الغريب:

ـ « تريد معجزة .. ليكن .. غدًا تنال « رغبة قلبك » .. هاك مالك »

ربط دونستان المال فى منديل ، ثم غادر الكوخ ليمشى تحت الأمطار التى بدأت تنهمر . واتجه لحظيرة الأبقار . حيث نام على الفور . فى الصباح استيقظ على ضوء الشمس يغمر وجهه . نهض ليلبس أفضل ثيابه ونظف الوحل عن حذائيه .. واتجه للمطبخ ليلثم أمه ، ثم يلتهم رغيفًا وقطعة زبد .

دخل إلى الرجل طويل القامة ، فدعاه إلى أن يأخذ جولة معه .

مشيا عبر المرج نحو الخيام . وهناك قال له الرجل :

ـ « حان وقت أن أدفع آخر جزء من الإيجار الذى وعدتك به. لقد أقسمت .. والهبة سوف تستمر طيلة حياتى »

ـ « وما هى يا سيدى ؟ »

ـ « رغبة قلبك .. »

كانت هناك امرأة تجلس أمام زجاجة مليئة بالعيون التى تبيعها للعميان. وكان هناك رجل يبيع آلات موسيقية من كل العصور . أثواب

نسجت من الفجر والغروب .. خواتم الأبدية .. أشربة المحبة .. أشياء عجيبة جدًا لا تعرف نفعها. تساءل دونستان عن جدوى وجود بيض ملىء بالرياح ؟

التقط دونستان قطة من الكريستال ورفعها . أثار رعبه أنها رمشت بعيونها فألقاها. هبطت على مخالببها كأى قطة حقيقية . وراح يفتش فى الزحام عن شىء يناسب نقوده كى يبتاع هدية لديزى .

كان هناك معرض للسلع ، فدنا منه . كانت هناك أنواع عجيبة من الأزهار . تقليد متقن جدًا من الزجاج وتدق كالأجراس .

كانت البائعة شابة حسناء من القوم الذين يعيشون خارج الجدار. عرف هذا من وجهها .. كانت أذناها كأذنى قطة عليهما فراء رقيق . وكانت عيناها بنفسجيتين . التقط زهرة تصدر صوتًا جميلًا كالذى تسمعه عندما تمرر إصبعك على حافة كأس .. سألها عن السعر ، فقالت :

– « ليس السعر مما يناقش فى البداية هكذا .. »

– « وما نفعها ؟ »

– « ليس لها نفع سوى الزينة .. أن تهديها لمن تحب تعبيرًا عن تقديرك ... »

لاحظ شيئًا غريبًا .. هناك سلسلة من الفضة تحيط بمعصم البائعة، وتنحدر إلى الخلف .. رأت دهشة عينيه فقالت :

ـ « السلسلة ؟ .. إنها تربطنى لمنصة البيع .. أنا جارية لدى الساحرة التى تملك المعرض . أسرتنى منذ أعوام وأنا ألعب فى الشلالات فى أرض أبى . سوف أتحرر يوم يفقد القمر ابنته .. الأسبوع الذى يكون فيه يوما اثنين .. أنتظر هذا الموعد فى شغف .. هلا اشتريت زهرة منى ؟ »

ـ « اسمى دونستان هل لك اسم ؟ »

ـ « لا اسم لى .. أنا جارية .. أخذوا اسمى منى »

التقط بعض الأزهار البلورية وفتح المنديل لتأخذ منه ما تريد .. فقالت له :

ـ « نحن لا نأخذ مالًا فى هذا المكان »

الحقيقة أن جمال الشابة جعله يفقد صوابه .. نسى تقريبًا أنه يبتاع هدية لديزي. قالت الفتاة :

ـ « سوف آخذ لون شعرك .. أو ذكريات ثلاثة أعوام أو قدرة إحدى أذنيك على السمع .. أو قبلة منك .. على خدى »

صاح دونستان :

ـ « هذا ثمن أدفعه بكل سرور ! .. »

وانحنى ليطبع قبلة على الخد الناعم. شم عبقها فشعر بخدر حقيقى .

ناولته الهدية فأخذها بيدين خرقاوين يشعر بضخامتهما. قالت له :

ـ « عد لى هذه الليلة عندما يكتمل القمر يا دونستان ثورن.. أصدر صوت بومة .. هل تعرف كيف ؟ »

كيف عرفت اسمه ؟ لا يهم .. أخذته مع أشياء كثيرة أخذتها منه ، ضمنها قلبه ..

أخذ الهدية وانصرف. قدمها لديزى حيث جلست فى الحانة مع أبيها وأمها يلتهمون السجق كبير الحجم، ولسبب ما انحنى ليقبل خدها .. صاحت فى احتجاج وكذا صاح الأب .. ثم رأى الأب النظرة فى عينى دونستان فأدرك أن الفتى مسحور .. كأن جنية قد مسته ..

ذهب أبو ديزى مع أبى دونستان إلى ذلك المعرض الذى ابتاع منه دونستان الهدية، فلم يجدا شيئًا غريبًا .. مجرد سيدة عجوز تقف للبيع ، وجوارها طائر رائع الجمال مربوط بسلسلة فضية إلى المنضدة ..

حاولا أن يفهما من السيدة أو يعرفا ما حل بدونستان . لكنها لم تفدهما بشىء . كانت تتكلم عن الهدايا الثمينة التى فقدتها دون مقابل أو بثمن بخس ..

بقى دونستان فى القرية الخالية .. كان الكل قد تركوا القرية ليكونوا فى السوق . ذهب لحانة الغراب السابع وجلس على منضدة خشبية، فأراح جبهته على يده وراح يحملق فى الفراغ. حاول تومى أن يكلمه وحاول جعله يبتسم . لكنه لم يستجب .. هكذا اضطر لتركه ليذهب للسوق .

جاء الليل ومعه قمر الخريف العملاق .. ارتفع فى السماء وهب نسيم بارد . وبدأت طرقات السوق تخلو .. بينما تزاحم المارة فى خيام العجائب التى تقدم عروضها .

مشى دونستان ثورن ببطء عبر طرقات القرية . اجتاز فجوة الجدار، واتجه إلى المرج . للمرة الأولى يفعلها ليلًا . خطر له أن يعبر نطاق الأشجار ليذوب فيها .

رفع يديه لفمه وأصدر صوت البومة. لا استجابة ..

كرر الصياح ..

همست الفتاة البائعة فى أذنه :

ـ « هذا ليس صوت بومة ... ربما هى بومة إسطبل أو بومة ثلوج »

كان يتنفسها .. كان يستنشقها عبر مسام جلده ..

ـ « هل تحسب أنك تحت تأثير السحر أيها الشاب ؟ »

ورقدت على العشب ورقد جوارها وراحا ينظران لنجوم السماء . هذه الليلة هناك شيء غامض بالنسبة للنجوم .. لها لون غريب .. عددها أكثر من أى ليلة .. هناك لغز ...

مد يده وتحسس السلسلة التى تمتد من معصمها إلى العشب وتمتد لبعيد. كانت قد تم صنعها من الفضة وضوء القمر وقشور السمك. لن تزول إلا عندما تتحقق التعويذة . سلسلة طويلة تسمح لها بالذهاب لبعيد لكنها تفتقد أرض أبيها .

ضمها دونستان لصدره وشعر بدموعها .. لم يدر إن كان يفعل الشيء الصحيح أم لا ..

للحظات احتلا نفس الموضع فى الكون .. وبدا أنهما لن ينفصلا للأبد ..

بعد قليل نهضت ولملمت ثيابها وطلبت منه أن يرحل .. كان صوت الخيول يتعالى من بعيد ، وقد بدأ البعض يتركون خيامهم ...

نهض دونستان حائرًا شاعرًا بدوار .. كأنه قد شاخ عن أعوامه الثمانية عشر . عاد لحظيرة الأبقار فنام بحذائه حتى أيقظته الشمس.

انتهى السوق فى اليوم التالى . فارق الغرباء البلدة وعاد كل شيء كما كان . بعد أسبوعين طلب فورستر يد بريجيت فوافقت . وجاء مستر هيمستوك يزور السيدة ثورن .. شربا الشاى فى الرواق . وتحدثا عن أن ديزى هيمستوك ستكون وصيفة العروس ، فقال : إن هذا مؤكد بشرط أن تظل حية وقتها !

تساءلت السيدة فى دهشة .. هل الفتاة مريضة ؟

قال الأب :

– « هى لا تأكل .. تشرب بعض الماء من حين لآخر »

– « رباه ! »

– « أمس عرفت السبب .. إنه ابنك دونستان »

– « نعم .. لقد تجاهلها .. لم يعد يبالى بها .. طيلة الوقت تمسك بهدية لها وتبكى »

قررت الأم أن تسوى الأمر .. السبب هو ثراء والد ديزى ..

فى شهر يونيو تزوج دونستان ديزى هيمستوك. كان عريسًا مشتتًا غير سعيد لكن العروس كانت متألقة جذابة. وكان الغريب أنه منعها من ارتداء الهدية التى اشتراها لها من السوق فى إبريل ..

عاش العريسان فى بيت دونستان بينما بدأ الأهالى يشيدون لهما مزرعة .

جاء أول خريف ثم الشتاء ... وفى نهاية فبراير عندما بدأ الصقيع يغلف أشجار الغابة، حشر أحدهم سلة من الخيزران عبر الفجوة فى الجدار . لم يلحظ الحراس السلة بسبب الظلام والمطر. فجأة دوى بكاء طفل رضيع .

هنا نظروا ليروا السلة . وفيها كانت بطانية حريرية منها يبرز وجه جائع وردى . وعلى الغطاء ثبت دبوس فضى عليه وريقة ، كتب عليها بخط جميل :

تريستران ثورن

الفصل الثانى

وفيه يبلغ تريستران ثورن مبلغ الرجال ويعد وعدًا أخرق

مرت أعوام . وكبر تريستران ثورن . كانت أخته لويزا أصغر منه بستة أشهر . وفى سن الرابعة عشرة كسر ذراعه عندما سقط من فوق الشجرة التى تطل على بيت الآنسة فكتوريا فورستر .. ابنة السيد توماس فورستر الحسناء . كانت بلا جدال أجمل فتاة على بعد مئة ميل.

وعندما بلغ الثامنة عشرة كان على يقين أنها أجمل فتاة فى بريطانيا. وقد حطمت قلوبًا لا حصر لها. كانت لها عينا أمها الرماديتان ووجه له شكل القلب وشعر أبيها بلون البندق . وقد تشاجرت مع أمها ؛ لأنها كانت تريد أن تعمل ساقية فى حانة الغراب السابع . كانت بريجيت فوستر ذات لسان قادر على تقشير الطلاء من على باب إسطبل ، ومن الغريب أن زوجها توماس رأى الرأى ذاته .

كان هناك معجبون كثيرون لفكتوريا ، ومنهم رجل أرمل فى الخامسة والأربعين اسمه مستر (مونداي) – الاثنين – لقبول الزواج منه مزية أن يكون لديك بيت واسع وخدم وأن تسافر للندن بالعربة وأن تذهب لبرايتون للاستحمام فى مياه البحر .

كان تريستران غارقًا فى الأحلام .. يحلم بأميرات فى خطر يخترق الغابة لينقذهن . لم يعد بوسعنا أن نرى النجوم كما كان القوم يرونها وقتذ . لا عدد لها كأنها أوراق شجر .. وكان تريستران فى الليل يرمق السماء حتى ينسى كل شىء . ثم يعود لفراشه وينام كجثة.

كان يعاون أباه فى المزرعة صباحًا وفى الليل يعمل فى متجر مونداى وكلارك، وهو أقرب إلى متجر بقالة القرية . لكنه لم يكن يحوى بضائع بل كان يعتمد على القوائم .. الفلاحون يعطونه قوائم باحتياجاتهم فيسافر مستر مونداى لأقرب بلدة ويعود بالبضاعة بعد أيام.

هكذا كان فى المتجر عندما دخلت فكتوريا الحسناء ومعها قائمة مشتريات . وامتقعت قليلاً عندما رأت تريستران . ناولته قائمة مشترياتها التى ترغب فيها .

راح الفتى يقرأ القائمة محاولًا أن يجد نقطة لبدء الحديث بأى شكل . فى النهاية قال لها :

ـ « يمكن أن نجلب معظم القائمة صباح غد . الباقى الأسبوع القادم »

هبت ريح قوية من الباب ، فتوهجت النار فى المدفأة وتراقصت . وجد فى نفسه شجاعة لم يحسب أنه يملكها ، فعرض عليها أن يوصلها للبيت وأثار دهشته أنها قالت نعم ..

هرع يجلب معطفه ويخبر مستر براون أنه سيرحل الآن .. فغمغم الرجل لائمًا.

مشى مع فكتوريا على الدرب المغطى بالحجارة .. القمر مكتمل والنجوم تضيء بقوة ..

بعد قليل صعدا هضبة دايتى التى تطل على بلدة وولز التى تتوهج بالشموع فى الظلام . توقفا فأمسك بيدها .. لم تعترض ...... لكنها

قالت وهى تنظر لبعيد:

ـ «هل ترى هذا ؟»

ـ «لم أر شيئًا .. كنت أنظر لك فأنت أروع فتاة فى العالم»

قالها من أعماق قلبه . ثم عاد يسألها عندما رآها تبتسم:

ـ «ماذا رأيت ؟»

ـ «نجمًا يهوى ...»

قال لها :

ـ «فيكى .. هل يمكنك أن تقبلينى ؟ »

ـ «لا»

ـ «لو لم تقبلينى فهل تقبلين أن تتزوجينى ؟ »

هنا دوى صوت ضحكات أجمل فتاة فى بريطانيا وقد راق لها الأمر.

ـ «أتزوجك أنت ؟ ولم أتزوجك يا تريستران ثورن ؟ ماذا تعطيه لى ؟»

ـ «أعطيه ؟ سوف أسافر لأفريقيا لأحضر لك أنياب الفيلة، وأسمى منابع النيل باسمك .. سأذهب للهند لأجلب لك النمور والحرير .. سأذهب للشمال لقتل الدببة القطبية وأقدم فراءها لك ..»

قالت فى برود :

ـ «أنا لن أتزوجك يا فتى المزرعة وعامل المتجر .. وكذا لن أقبلك»

ـ « سأجلب لك كنوز القراصنة .. سأسافر لأستراليا وأحضر لك .. كنجارو .. »

اعتصرت يده وقالت :

ـ « وماذا سأفعله بكنجارو ؟ »

توسل لها وأشار بيده للسماء .. هناك فى مجرة أوريون فى الأفق الشرقى كان نجم يتألق ويهوى . قال لها :

ـ « من أجل قبلة ومن أجل نيل يدك سوف أجلب لك هذا النجم »

أدرك أنه لن ينال القبلة ، برغم أن أبطال القصص التى يقرؤها يظفرون بالقبلات دومًا ، فقالت له :

ـ « لو جلبت لى هذا النجم بالذات فلسوف أقبلك ... من يدرى ما أفعله كذلك ؟ هكذا ترى أنك لن تذهب لأستراليا أو أفريقيا »

ثم ضحكت وبدأت تهبط فى الهضبة نحو بيت أبيها.

جرى ليلحق بها :

ـ « هل تعنين هذا ؟ »

ـ « بالطبع .. أعنيه تمامًا ... سأعطيك أى شىء يا عامل المتجر »

ـ « هل تقسمين ؟ »

ابتسمت وقالت :

ـ « نعم »

أوصلها إلى الطريق المتجه نحو مزرعة أبيها ثم قال وهو ينحني:

ـ « سوف أتركك هنا لأن عندى مهمة فى الشرق »

ضحكت الفتاة . ظلت ضحكتها تتابعه ...

راح يجرى حتى بلغ بيته ، فدخل المطبخ . قال أبوه :

ـ « تريستران ؟ »

قال الفتى :

ـ « سوف أفارق البلدة الليلة .. أنا راحل »

كان الأب فى الخامسة والثلاثين محتفظًا بنفس النمش مع خصلات شائبة فى شعر صدره . لاحظ نظرة الذهول فى عين الفتى فطلب من زوجته ديزى أن يتحدث مع ابنه على انفراد . سأل ابنه:

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « الشرق .. »

هناك شرقان .. شرق باتجاه البلد الآخر .. وهناك شرق فى جانب الجدار الآخر .. سأل ابنه من جديد:

ـ « هل فكرت فى كيفية اجتياز الجدار ؟ »

هز الفتى رأسه :

ـ « بالتأكيد سأجد طريقًا .. ربما أقاتل الحراس »

ـ « لن تفعل هـذا .. هـل تحب أن يحـدث هـذا معـك أو معى أثناء الحراسة ؟ .. تعال معى .. أعد حقيبتك وودع أمك واتبعنى »

أعدت الأم حقيبة ابنها ، ووضعت فى الحقيبة ست تفاحات ورغيف خبز وقطعة جبن . لم تنتظر له فقبلها. مشى مع أبيه وهو يتساءل فى سره عما يفكر فيه أبوه .. كيف ينوى عبور الفجوة ؟ لقد تخيل كل سيناريو ممكن لما سيفعله أبوه.. هل ستكون مشاجرة ؟ هل يجذب انتباه الحراس إلى أن يفر هو ؟

كان هارولد كرتشبك واقفًا للحراسة مع مستر بروميوس ..

اتجه دونستان نحوهما وضرب كعبه فى الأرض وقال :

ـ « مساء الخير »

وقف تريستران يصغى فى غيظ وغل .. هنا قال الأب للرجلين :

ـ « هذا تريستران ابنى .. تعرفان طبعًا من أين جاء ... هو الآن سيعود »

قال هارولد : إنه سمع قصصًا لكنه لم يصدقها ، ولم يفهم تريستران عن أى شىء يتكلم . تبادل الرجلان كلمات هامسة لم يعرفها تريستران ، وفجأة شعر تريستران بشيء بارد يوضع فى يده ، وقال أبوه:

ـ « هلم أى بنى .. اذهب وعد بالنجم .. ليكن معك الله وملائكته »

أفسح له الرجلان البوابة .. فاجتازها ..

استدار لينظر لثلاثة الرجال وتساءل لماذا سمحوا له بالعبور..

اتجه نحو الجبال وهو يتحسس الشيء الذى وضعه أبوه فى يده ..

اجتاز الغابة ونظر لأعلى .. هنا لدهشته رأى القمر بين الأغصان .. كان هذا مدهشًا .. لقد رأى القمر يغيب قبل بدء رحلته. كان قمرًا أقرب للهلال عندما بدأ .. أما القمر الذى يراه الآن فهو قمر حصاد كبير متألق.

شعر بالشيء البارد فى يده يصدر رنينًا كأجراس كاتدرائية .. فتح يده فى اتجاه القمر. كانت قطعة ثلج صنعت من الزجاج.

هنا بدأ يدرك فداحة ما فعله .. يرتحل فى الغابة بحثًا عن نجم لا يعرف كيف يجده. لو عاد اليوم فلن يلومه أحد أو يسخر منه. حتى فكتوريا سوف تناديه (فتى المتجر) كعادتها.

تذكر عينى فكتوريا وشفتيها وعينيها الرماديتين. صوت ضحكاتها. غرس قطعة الثلج الزجاجية فى ياقة معطفه ..

كان أصغر من أن يخاف .. وأجهل من أن يتوجس.. مضى عبر الحقول التى نعرفها قاصدًا أرض الجان ..

الفصل الثالث

وفيه نقابل الكثير من الأشخاص، المهتمين بأمر النجم الذى هوى

نحتت قلعة ستورمهولد فوق قمة جبل هوون . وأقام فيها سادة أسرة ستورمهولد وشيدوا فوقها حتى صارت القمة كأنها فم وحش عملاق ينظر للسماء . هناك كانت الغيوم والبرق يحتشدان .. قبل أن تنهمر الأمطار تحت .

كان السيد الحادى والثمانون من سادة ستورمهولد يلفظ أنفاسه فى غرفته المنحوتة فى القمة كأنها فجوة فى سن نخرة. نادى أبناءه الأحياء والموتى للفراش فجاءوا والتفوا حوله. الأحياء عن يمينه والموتى عن يساره..

كان لديه ثلاثة أولاد أحياء هم بريموس وتيرشيوس وسبتيموس .. وقد وقفوا مرتبكين فى ركن الغرفة. ولم ينظروا لأخوتهم الموتى كأنهم ليسوا فى الحجرة أصلًا . ربما تعود رجفتهم للريح الباردة ، أو لأنهم هم من قتلوا إخوتهم الموتى . سبتيموس قتل كوينتوس وسكتوس .. سمم الأول بأكلة من ثعبان السمك ، وقذف بالثانى من فوق الهاوية وهما يتأملان عاصفة رعدية.(*)

كان السيد يتمنى لو أن أجله أتى بينما لم يبق حيًا من أبنائه سوى واحد .. هذا الواحد كان سيصير هو الوريث. حدث هذا معه منذ مئة عام .. لكن عدد

(*) أبناء الملك يحملون أسماء مشتقة من الأرقام اللاتينية حسب ترتيب الميلاد: بريموس الأول .. سيكوندوس الثانى . . . سبتيموس السادس .. إلخ

الورثة كثير فعلًا هذه المرة .

سأله بريموس :

ـ «أبت .. نحن كلنا هنا .. فماذا تريد عمله معنا ؟»

سحب الرجل شهيقًا عميقًا ثم قال :

ـ «سوف تحل نهايتى حالًا .. وسوف تدفنونى فى قاعة الأجداد. لو لم تفعلوا لحلت بكم اللعنات»

تنهد الأبناء الموتى ؛ لأن رفاتهم التهمتها النسور أو جرفتها السيول ، فلم ينعموا قط بالراحة فى قاعة الأجداد . أمر بريموس بأن يذهب للنافذة ويلقى نظرة ..

ـ «ماذا تراه ؟»

قال بريموس :

ـ «أرى سماء الليل يا سيدى بلون الكدمات والسحب»

هنا أمر الأب سبتيموس بأن يذهب للنافذة وينظر ..

قال الفتى :

ـ «أرى نجمًا يا سيدى ..»

ـ «احملونى للنافذة»

تعاون أولاده على حمله للنافذة كما طلب. وقف هنالك يستند على أكتاف

أولاده العريضة .. ومد يده يعبث فى سلسلة فضية ثقيلة تتدلى من رقبته. وأمسكت أصابعه بقطعة من التوباز .

تهامس الأبناء الموتى بأصوات الموتى الشبيهة بصوت الثلج المتساقط. من يلبس التوباز من آل ستورمهولد يصر السيد . من الذى سيعطيه هذا التوباز ؟

وقف الشيخ من دون عون .. الشيخ الذى قتل كل الغيلان والعفاريت .. والذى تزوج ثلاث نساء .. والذى قتل إخوته الأربعة .. وقف ليقول أربع كلمات من لغة بائدة ..

ثم قذف الحجر التوباز فى الهواء ..

شهق الأبناء وهم يرون الحجر يرتفع نحو السحب .. وبدا أنه سيسقط الآن .. لكنه واصل الارتفاع فقال الأب :

ـ « من يستعد هذا الحجر الذى يمثل قوة آل ستورمهولد، له بركاتى ومملكة ستورمهولد .. »

وبدأ صوته يضمحل كأنه الريح تعوى فى بيت مهجور.

كان الظلام قد حل .. وظهرت النجوم بوضوح، وفجأة هوى نجم ... هوى كأنه شرارة تشق ظلام الليل . قال الأب:

ـ « هذا هو »

ثم سقط على الأرض الحجرية وكف عن التنفس .

قال بريموس وهو يرمق الجثة:

ـ « أتمنى أن ألقى بالوغد المسن من النافذة .. ما سبب كل هذا العته ؟ »

قال ترشيوس :

ـ « لا تفعل .. لا نريد أن تحل بنا اللعنات .. فلنحمله لقاعة الأسلاف »

أين ذهب الحجر ؟ السؤال هو عن اتساع أرض الجان . أرض الجان ليست أرضًا واحدة .، الخرائط غير دقيقة ولا يعتمد عليها . إن أرض الجان أكبر بمراحل من إنجلترا بل هى أكبر من العالم نفسه . هنا تعيش الجريفون والويفرن والهيدرا والبازيليسك. هناك كذلك حيوانات نعرفها مثل القطط والكلاب والخيول والدببة .

* * *

فى وسط الغابة الكثيفة هناك كوخ صغير ، بنى من الخشب والقش، له منظر يثير القلق . على العتبة هناك طائر أصفر صغير فى قفص يجلس صامتًا .

داخل الكوخ غرفة واحدة بها لحوم مدخنة وسجق معلق من دعامات السقف . هناك ثلاثة أسرة اثنان صغيران والثالث كبير وعال . وهناك نافذة متسخة جدًا يصعب أن ترى منها أى شىء .

الشىء النظيف الوحيد هو مرآة من زجاج أسود ، عريضة كباب كنيسة

فى البيت تعيش ثلاث نساء مسنات يتبادلن النوم فى الفراش الكبير وفى

غسل الأوانى وفى صيد الحيوانات. وكان كلامهن قليلًا .

فى البيت كانت ثلاث نساء أخريات نحيلات يعشن فى ردهة حجمها ثلاثة أضعاف الكوخ . كانت هناك نافورة يتدفق فيها الماء من تمثال عروس بحر فمها مفتوح .. والماء أسود نظيف يتدفق من فمها للحوض ويلتمع تحت النجوم . النساء الثلاث اللاتى يملكن الردهة والتماثيل كن يظهرن فى المرآة .. بينما الثلاث الأخريات يعشن فى الكوخ الفقير.

هؤلاء هن الليليم ..

فى ذلك اليوم جاءت واحدة منهن حاملة حيوان (قاقم) من الغابة، وقطعته ثم جردته من جلده كأنها تنزع بيجامة طفل. شقت أصغرهن حجمًا بطن الحيوان فخرجت أحشاؤه .. صرخت المرأة :

ـ « بسرعة !.. بسرعة ! »

التفت النسوة حول الحيوان فى فضول، وتساءلت الأولى:

ـ « ماذا هنالك ؟ »

فى المرآة كنت ترى النسوة شابات حسناوات ..

حملقت النسوة بعيون رمادية أبلاها الكبر إلى الحيوان .. وقالت واحدة:

ـ « هكذا .. حان الوقت ! »

ورحت يتحسسن أحشاء الحيوان بعيون مغمضة .. واحدة أمسكت بالكلية وواحدة أمسكت بالكبد. بينما هتفت واحدة فى فخر :

ـ « أنا نلت القلب ! »

ـ « كيف ستسافرين ؟ »

ـ « بعربتنا القديمة يجرها أى شيء أجده عند تقاطع الطرق »

ـ « تحتاجين لأعوام أطول »

وتناولت إحداهن صندوقًا حديديًا مربوطًا بخيوط معقودة . فكت كل ساحرة عقدة من الخيط .. مدت الساحرة التى وجدت القلب يدها فى القاع لتخرج شيئًا ذهبيًا .. راح يتملص من يدها محاولًا الفرار . فتحت فمها وابتلعته . إنه بقايا النجم الهاوى السابق .. آخر ما تبقى منه.

راحت امرأتان فى المرآة تنظران بحسد إلى المشهد.

قالت المرأة :

ـ « عندما أعود بقلبه سنظفر بأعوام طويلة لكل منا .. »

ثم لفت سوارًا أرجوانيًا حول معصمها .. سوارًا له شكل ثعبان يبتلع ذيله .

قالت إحداهن :

ـ « نجم .. »

ـ « نجم »

ـ « إنه الأول منذ مائتى عام.. نجم هاو، ولسوف نجد فيه شبابنا »

الفصل الرابع

هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة ؟

كان أكتوبر يبتعد مع كل خطوات تريستران ، حتى شعر بأنه يمشى نحو الصيف . كان يمشى فى ممر بين الأشجار . فوق رأسه يسطع قمر الحصاد وتتوهج النجوم . كان يشعر بنعاس ؛ لذا وضع حقيبته الجلدية على الأرض وأراح رأسه عليها وتغطى بمعطفه .

بدأ يحلم بطفولته وأيام المدرسة .. وتخيل أن المعلمة تطلب منه تسميع أسماء ملوك إنجلترا ومتى تولى كل منهم الحكم .. هنا سمع من يقول:

ـ «معذرة .. هلا حلمت بصوت أهدأ ؟ .. حلمك ينسكب فى حلمي، وأنا عاجز تمامًا عن حفظ التواريخ »

سمع من يقول له :

ـ «الإفطار .. (ماشرامب) محمر فى الزبد مع بعض الثوم »

فتح تريستران عينيه ليرى ضوء النهار، ويشم رائحة كأنها رائحة الجنة. ووجد وعاء يوضع أمامه ؟

رمش بعينه وأمسك بقطعة من الطعام وقضم بحذر .. شعر بالعصائر بين شفتيه . كان ألذ شىء أكله فى حياته. قال هذا للرجل ، فقال له :

ـ «أنت لطيف .. لكن تذكر أن هذا مجرد (ماشرامب) وليس شيئًا خاصًا »

كان ضئيل الحجم بقبعة مترهلة واسعة ومعطف واسع . طلب منه تريستران المزيد .. كما يحدث دومًا مع الوجبات الصغيرة . قال لنفسه : إنه

من الصعب أن يكون هذا رجلًا حقيقيًا .. مد الرجل سكينه فى المقلاة والتقط قطعتين من عش الغراب ووضعهما فى طبق تريستران. التهمهما تريستران بأنامله وهو ينفخ من السخونة.

قال الرجل:

ـ «كان لى صديق اعتاد أن يأكل ثعبانًا كل يوم فى الصباح ، وكان يقول : إن هذا يضمن ألا يحدث له شىء أسوأ طيلة اليوم ؛ لذا أجبروه على أكل أم أربعة وأربعين قبل شنقه ليعزوه »

نهض تريستران وأفرغ مثانته جوار شجرة . بينما جمع رفيق الصباح كل حاجيات الإفطار ووضعها فى حقيبة على ظهره . ثم تقدم المسيرة، وراح تريستران يحاول اللحاق به .. فالرجل برغم الحمل الثقيل على ظهره كان يسرع المشى مبتعدًا عنه ، كأنه سنجاب على شجرة .

صاح فى الرجل:

ـ «توقف !.. لا أستطيع اللحاق بك ! »

أبطأ الرجل المشى وقال:

ـ «أرجو عذرك .. اعتدت الوحدة لذا اعتدت سرعة المشى»

مشى الرجلان وسط أشجار تتوهج بلون أزرق غريب .لم يفهم تريستران كنه هذه الأشياء . عند الظهر جلسا يأكلان تحت شجرة، فأخرج تريستران الرغيف والتفاح والجبن . التهم الرجل الطعام بشهية ثم ملأ براد الشاى من

بركة وأعد الشاى . ثم سأل تريستران عن وجهته. فكر هذا قليلًا ثم قال :

ـ « أنا من بلدة وول .. هناك حسناء تدعى فكتوريا فورستر .. لقد منحتها قلبى و.. »

ـ « اختصر .. ما الشيء الأحمق الذى كلفتك الحسناء به ؟ »

نهض تريستران فى غضب وقال :

ـ « لماذا تتصور أن مليكة أحلامى ترسلنى فى مهمة حمقاء ؟ »

قال الرجل :

ـ « هذا هو السبب الذى يدفع شابًا مثلك لعبور حدود أرض الجان .. لابد أن يكون شاعرًا أو عاشقًا أو مجنونًا . ومن الواضح أنك لست مجنونًا أو شاعرًا .. إذن هو الحب »

ـ « كل عاشق هو فى عقله مجنون وفى قلبه شاعر.. لقد رأيت ذلك النجم الهاوى فوعدتها بأن أجلبه لها ، ، سقط هناك .. »

ولوح بذراعه نحو الجبال. فقال الرجل الصغير وهو يحك أنفه :

ـ « هل تعرف ما كنت سأفعله ؟ كنت سأطلب منها أن تذهب لتغسل وجهها فى ماء شرب الخنازير ، وأبحث عن واحدة أخرى ترضى أن تقبلنى دون أن أمنحها الكرة الأرضية .. لو أنك ألقيت حجرًا لصدم واحدة مناسبة »

ـ « لا توجد فتاة سواها .. »

قال الرجل :

ـ «لو كنت مكانك لما تكلمت عن هذا النجم الساقط .. هناك من يدفع أى ثمن مقابل هذه المعلومة. لو سألوك من أين جئت فلتقل: من خلفى وإلى أين أنت ذاهب .. قل : إلى أمامى »

مشى الرجلان وتساءل تريستران:

ـ «هل المسافة بعيدة لذلك النجم ؟ »

غنى الرجل :

ـ «كم ميلًا على بابل ؟ .. هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة؟ نعم .. ويمكنك أن تعود .. لو شعرت بأن قدميك خفيفتان ، فبوسعك أن تذهب هناك على ضوء شمعة »

فجأة شعر تريستران بالبرد .. نظر إلى الممر الذى يمشى فيه فلم يعد هناك ممر .. لا توجد علامات مميزة. قال له الرجل :

ـ «نحن فى خطر .. لقد وقعنا فى الفخ .. حتى لو جرينا فنحن فى قبضتهم ! »

اتجه نحو شجرة قريبة وركلها بقدمه .. سقطت بعض أوراق ثم هوى شىء من أعلى الشجرة بصوت هامس .. دنا تريستران منه ليرى فوجده هيكلًا عظميًا نظيفًا لطائر .. همس :

ـ «ربما علينا أن نتسلح قبل قدومهم ؟ »

قال الرجل :

ـ « قبل قدومهم أيها الساذج ؟ إنهم هنا فعلًا .. إنهم هذه الأشجار ! .. نحن فى سيروود »

ـ « سيروود ؟ »

ـ « لقد تصرفنا بحماقة .. لن تجد نجمك وأنا لن أجد بضاعتى .. سوف يجدون هيكلينا العظميين النظيفين .. »

شعر تريستران بشيء يلدغ ذراعه. ضربه متوقعًا أنه حشرة .. كانت ورقة شجر مصفرة، ورأى أن ذراعه تنزف .. تساءل :

ـ « هل من شيء نعمله ؟ »

ـ « لا شيء أعرفه .. إلا لو عرفنا أين الممر .. السيروود لا يستطيع قهر الممر الصحيح .. »

ضرب تريستران جبهته وقال :

ـ « الطريق الصحيح من هنا .. إلى اليمين »

ـ « كيف تعرف ؟ »

ـ « أعرف فحسب »

وراح تريستران يجرى والأشواك تضرب وجهه، وتمزق ثيابه. انهمرت الأوراق عليهما وبدا كأن الأشجار تتراص حولهما فى صف .. راح الرجل الصغير يصرخ، فأمره تريستران أن يتماسك فالخلاص قريب. فى النهاية وجدا الممر الحقيقى. تساءل تريستران وهو يلهث طلبًا للهواء :

ـ «هل وصلنا ؟»

ـ «نحن آمنان ما دمنا على الممر الصحيح ..»

قالها الرجل وجلس على الأرض يتأمل الأشجار من حولهما ، كانت الأشجار تهتز برغم عدم وجود ريح. بدا لتريستران أنها تهتز غضبًا. مرت ساعتان وبعدها بدأت الأشجار تقل .. وبدا أنهما اجتازا سيروود. فقال الرجل الصغير :

ـ «لنجلس هنا .. سوف نناقش بعض الأشياء»

قدم له قارورة من شراب يحمله على كتفه، وقال له إنه شراب ثمين ثمنه قريب من فدية ملك .. شرب تريستران وشعر بعطر غريب يتسرب لروحه .. قال له الغريب وهو يعيد الزجاجة لظهره :

ـ «تقول إنك جئت من وول .. هل تعرف أين (تلال الشك) ؟»

أشار تريستران بلا تردد فى اتجاه معين

ـ «هل تعرف أين جزر كاتافاريان ؟»

أشار تريستران إلى الجنوب الغربى . لم يكن قد سمع هذه الأسماء من قبل، لكنه وجد نفسه يعرف المكان بمجرد ما سأله الرجل . سأله الرجل عن اتجاه باريس فلم يعرف الفتى . هكذا قدر الرجل أن تريستران يعرف أماكن الأشياء فى مملكة الجن وليس فى العالم الخارجى . سأله عن اتجاه النجم الذى هوى فأشار تريستران فى اتجاه معين .

* * *

عند الفجر انطلق السادة الثلاثة من أسرة ستورمهولد عبر طريق الجبال. العربة تجرها ستة خيول سود ومطلية بالأسود لون الحداد. كانوا يتبادلون النظرات المتشككة. لو كانت هناك أحلاف لتحالف بريموس مع ترشيوس ضد سبتيموس . لكن لا توجد أحلاف.

كانت هذه جنازة أبيهم . وأعلن الحوذى أن هذه حانة نوتاواى فترجلوا ..

خرج لهم صاحب الحانة. فسألت خادمة الغرف :

ـ «كم فراشا أقوم بتهويته ؟ »

قال صاحب الحانة:

ـ «ثلاثا .. وأعدى لنا يخنة .. »

بدا للفتاة أنها ترى سبعة فرسان. لكن تم إعداد العشاء والأسرة لثلاثة. عصيدة وخبز ساخن يتصاعد منه بخار شهى .. وأمام كل واحد وضعت زجاجة من أفخم أنبذة بورنى ، فلم يكن واحد من السادة ليشارك زجاجته مع أخويه أو يسمح لهما بصب الخمر له . قدموا العشاء للحوذى ثم ذهب لينام فى الإسطبل مع الخيول .

أخلدوا للفراش . أما ترشيوس فألقى قطعة فضية لخادمة الغرف ، هكذا جاءته بعد منتصف الليل وهى تحمل شمعة وزجاجة خمر .. قبلته وسقته جرعة من الزجاجة .. هنا لاحظت أنه ليس على ما يرام .. وجهه محتقن وعيناه جاحظتان . وبصوت مبحوح سألها :

ـ «هذه الخمر .. من أين جئت بها ؟»

قالت الفتاة:

ـ «من أخيك .. قابلته على الدرج فقال لى : إنها نوعية ممتازة ستمنحنا ليلة عظيمة لن ننساها»

تنفس وهو يرتجف .. وقال :

ـ «هى كذلك فعلًا ..»

ثم تشنج مرة .. مرتين . ثم همد نهائيًا ..

سمع ترشيوس صراخها وبدا من بعيد جدًا ، بينما هو يقف مع أربعة أشباح مألوفة فى ظلال الجدار. همس سيكوندوس :

ـ «كانت رائعة الجمال»

وقال آخر :

ـ «حيلة سبتيموس المعتادة .. مثل حيلة التوت البرى المسموم الذى جعلنى أبتلعه»

صرخت الفتاة فاستيقظ الخدم لكنهم لم يجدوا لورد سبتيموس قط... اختفى حصان أسود من جياد العربة ، بينما الحوذى نائم لا يستطيع أحد أن يوقظه .

استبد الجنون بلورد بريموس عندما صحا فى الصباح. رفض إعدام الفتاة؛ لأنها كانت ضحية لألاعيب سبتيموس الشريرة .. أعطاها حصانًا أسود

وعملات فضية وأمرها بأن ترافق جسد ترشيوس إلى قلعة ستورمهولد .

أخذ العربة التى لم يعد يجرها سوى حصانين وغادر القرية متعكر المزاج .

* * *

كان الصبى بريفيس عند تقاطع الطريق وهو يجر حبل التيس الذى أخذه ليبعه فى السوق. أمه فى الصباح قدمت له فجلة كإفطار، وقالت إن هذه هى الشيء الوحيد الذى وجدته فى الحقل اليوم. عليه أن يبيع التيس الشيء الوحيد الذى يملكانه. بالمال يشترى لفتًا ودجاجة ودقيقًا ..

كانت مهمة جر التيس اللعين صعبة جدًا، فهو يظل متصلبًا ثم يجرى فجأة، فيجرى الصبى معه . هنا يتوقف ويهاجم بريفيس ..

لا يعرف بريفيس كيف بلغ تقاطع الطرق وهو جائع غارق فى العرق . كانت امرأة فارعة تقف عند التقاطع .. هناك تاج من فضة يحيط بشعرها وكان ثوبها قرمزيًا كشفتيها.

سألته بصوت مبحوح :

- «بم ينادونك يا بنى ؟»

- «بريفيس يا سيدتى»

ولاحظ خلفها شيئًا غريبًا . عربة صغيرة بلا حصان. كيف وصلت لهذا المكان إذن ؟

«هذا التيس يا فتى ؟»

- «هذا اسم جميل .. هلا بعتنى هذا التيس يا فتى ؟»

- «أمى طلبت أن أبيع التيس مقابل دجاجة ودقيق ولفت ..»

هنا مدت يدها له فرأى شيئًا ذهبيًا . قالت له :

- «هذا جنيه ذهبى .. فهل اتفقنا ؟ يمكنك شراء مئة دجاجة وجبالاً من الدقيق»

مد الفتى يده لها منبهرًا فأخذت منه الحبل وهى تبتسم .. ثم لمست التيس بين عينيه وتركت الحبل . لكن التيس ظل متجمدًا حيث هو.

مد يده يطلب الجنيه، فنظرت له المرأة من فوق لتحت .. من جبينه الملوث بالعرق حتى حذائه المغبر وقالت:

- «هل تعلم ؟ أعتقد أن زوجًا متناسبًا أفضل من واحد»

لم يفهم شيئًا .. لكنها مست جبهته بين العينين، وسرعان ما وجد أنه عاجز عن النطق . ثم فرقعت بأصابعها فهرع بريفيس والتيس ليقفا أمام العربة وأدرك بريفيس أنه يمشى على أربع وأن الأرض قريبة منه.

فرقعت المرأة الساحرة بالسوط فاندفعت العربة على الطرق الموحل يجرها تيسان متشابهان ..

* * *

جلس تريستران فى الظلام ينتظر عودة الرجل الصغير الذى يرافقه من رحلته لقرية ريفلرى . منحه معطفه وقبعته من أجل الرحلة.. عاد الرجل

بعد قليل .. كان يحمل مجموعة من الثياب زاهية الألوان تختلف عن الثياب التى أخذها من تريستران ... قال له إنه بدلها فى القرية وإنها أمتن ولا تمزق بسهولة، كما أن أحدًا لن يشعر بأنه غريب وهو يرتديها.

ارتدى تريستران الثياب الجديدة.. يقولون إن الثياب لا تصنع الإنسان والريش لا يصنع الطائر، لكن هذه الثياب ناسبت تريستران جدًا، وبدا تألق معين فى عينيه وارتفع ذقنه لأعلى فى شموخ. كان الرجل قد جاء من القرية كذلك بسلامون مدخن وبازلاء معلبة وكعك بالزبيب ..

قال له الرجل الصغير إنه مدين له بخدمة ؛ لأنه أنقذ حياته فى السيروود .. كما أن أباه أنقذه من قبل فى قصة لا يعرفها تريستران . قال تريستران إن الرجل فعل الكفاية لكن هذا قاطعه ..

– «قلت لى أين ذهب نجمك ؟ »

أشار تريستران باتجاه معين .. فعاد يسأله :

– «لكن .. هل تعرف المسافة ؟ .. أنا أخبرتك بذلك من قبل .. »

– «متى ؟ »

– «عندما غنيت لك (كم ميلًا على بابل ؟).. تذكر (هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة ؟).. ليس كل الشمع صالحًا .. فقط نوع معين من الشموع .. »

وأخرج من جيبه شمعه فى حجم تفاحة وناولها لتريستران . تأملها فى

دهشة .. لم تبد له ذات أى خصوصية. الفتيل محترق مسود ..

ـ « وماذا أفعل بها ؟ »

ـ « ستعرف كل شىء فى وقته.. وخذ هذه كذلك »

توهج الشىء فى ضوء القمر. سلسلة فضية صغيرة باردة زلقة ...

ـ « ما هذا ؟ »

ـ « المعتاد.. أنفاس قط مع قشر سمك وضوء قمر .. وقد صاغه الأقزام . لابد من هذا كى تسترد نجمك »

تأمل تريستران السلسلة وقال:

ـ « أين أضعها ؟ ليست لدىَّ جيوب »

ـ « لفها حول معصمك .. لكن هناك جيبًا سريًا تحت سترتك »

وجد تريستران الجيب فعلًا فثبت فى عروته قطعة الجليد البلورية التى أخذها من أبيه .. أبوه قال إنها تجلب الحظ .. لكنه ليس متأكدًا هل هو حظ حسن أم سيئ ..

قال الرجل الصغير:

ـ « ستفعل التالى .. تحمل الشمعة فى يدك اليمنى .. تمشى نحو نجمك .. سوف تعيده معك بهذه السلسلة .. لا يوجد فتيل كثير فى الشمعة لذا كن خاطفًا .. »

- « سوف .. سوف أحاول »

مرر الرجل الصغير يده على الشمعة فاشتعلت بلون أصفر فوق وأزرق تحت. مشى تريستران بالشمعة ففوجئ بأنها تنير العالم .. كل شجرة وكل صخرة ..

رأى أنه يجتاز غابة وضوء الشمعة يغطى كل الأشجار، ثم رأى أنه على قمة جبل ثلجى .. وضوء الشمعة ينعكس فى عيون الوحوش القطبية .. ثم صار تحت الأرض ...

رأى فى طريق بالغابة عربة يجرها تيسان .. تركبها امرأة فى ثوب أحمر بدت له للحظة كأنها الملكة بوديكا ذاتها (*) وصل إلى أخدود فرفع الشمعة باحثًا عن بقايا نيزك .. أو حفرة أو أى شيء»

سمع صوت بكاء مكتوم وابتلاع .. شخص يحاول ألا يبكي.. فقال:

- « مرحبًا »

لكنه استطاع أن يرى ضوءًا تحت شجرة كستناء .. فمشى إلى هناك وحاول أن يهدئ الشخص المتوارى تحت الشجرة .. قال :

- « أنا أبحث عن نجم »

هنا تطاير غبار من الأرض المبتلة ليلوث وجهه وياقة ثوبه .. فقال بصوت عال :

(*) ملكة بريطانية قادت ثورة على روما فى عصر نيرون .

ـ « لن أؤذيك »

عادت قبضة غبار أخرى تضربه فتحاشاها لتصدم الشجرة .

قال الصوت :

ـ « ابتعد »

كان صوتًا خشنًا كأنما من كثرة البكاء. هى فتاة تتكوم حول نفسها تحت الشجرة وتنظر له بكراهية. عيناها حمراوان كالدم . شعرها أشقر حتى ليوشك على البياض.. ثوبها حريرى.

قال لها :

ـ « أرجوك لا تلقى المزيد من الوحل .. هناك نجم هاو هنا وعلىّ أن أجده »

قالت الفتاة :

ـ « أنا هشمت قدمى »

ـ « أنا آسف . النجم ... »

لكنها طوحت بمزيد من الغبار فى وجهه .. وصاحت :

ـ « ابتعد ! »

هبط عليه الفهم فجأة، فهتف :

ـ « أنت النجم ! »

انفجرت تشتمه بشتائم غريبة جدًا لكن من الواضح أنها بذيئة .

قال لها :

ـ « كما قلت »

ثم أخرج سلسلة فضية ولفها حول معصمها النحيل .. نظرت له فى مرارة وسألته بصوت تجاوز حدود الكراهية:

ـ « ماذا تظن أنك تفعله ؟ »

ـ «آخذك للبيت معى .. هذا قسم »

توهج لهب الشمعة ثم انطفأ وقد تلاشى الفتيل..

نظر تريستران للفتاة .. للنجم .. ولم يستطع قول شىء..

« هل يمكن أن أصل هناك على ضوء شمعة ؟ » .. لقد ولى ضوء الشمعة .. وأمامى سفر ستة أشهر ..

قالت الفتاة ببرود:

ـ « دعنى أقل لك إنها مهما كنت فلن أساعدك بأى شكل .. بل سأبذل كل ما بوسعى كى تفشل.. أنا لا أستطيع المشى .. هل أنت أصم بالإضافة لغبائك ؟ »

سألها :

ـ « هل ينام من هو مثلك ؟ »

ـ «ننام لكن ليس فى الليل . فى الليل نتألق»

أراح رأسه على الحقيبة الجلدية وراح يفكر .. ترى كيف سيعود وماذا يأكلان ؟ ترى أين الرجل الصغير ؟ ترى ... ؟ هنا كان قد نام .

ظلت الفتاة بعض الوقت تشتمه وتحاول تحريك السلسلة الفضية، ثم فى النهاية شعرت بالقنوط فنامت.

الفصل الخامس
وفيه صراع عنيف على التاج

فى الصباح كانت الفتاة أكثر لطفًا . كسر تريستران غصن شجرة على شكل Y ليصنع منه عكازًا . كانت ترمقه فى مقت لا تخفيه.كانت تتحسس السلسلة فقال لها :

ـ « فعلت هذا بسبب الحب .. وأنت أملى الوحيد .. اسمها فكتوريا .. فكتوريا فورستر .. وهى أجمل وأحلى فتاة فى العالم »

قالت فى احتقار:

ـ « وهذه المخلوقة الحلوة أرسلتك هنا كى تعذبنى ؟ »

ـ « فكرت أن النجم الهاوى هو أقرب لصخرة أو جوهرة .. لم يخطر ببالى أن يبدو كسيدة »

وساعدها على استعمال العكاز.. نهضت متثاقلة وهى ترمق العالم حولها فى كراهية. ثم سقطت أرضًا وجلدها أبيض شاحب والعرق يتجمع عليه:

ـ « رجلى .. لا أتحملها .. لابد أنها مكسورة »

ذهب للنهر فبلل بعض الأغصان ، ثم مزق قميصه إلى شرائط وراح يلفها حول ساقها على شكل جبيرة. ثم أخبرها أنهما سيذهبان لطبيب لكن ليس الآن . نهضت ومشت جواره وهى تئن .. وهو يشعر بالذنب مع كل خطوة . راح يسألها عن شعورها كنجم .. منذ متى هى نجم ؟.. كان يحسب النجوم كما قال معلمه : كرات غاز ملتهبة على بعد مئات الأميال .

ـ « لماذا سقطت ؟ هل تعثرت فى شىء ؟ »

توقفت وأخرجت شيئًا من ثيابها وقالت:

ـ « لم أتعثر .. ضربنى هذا ... »

وأرته حجرًا أصفر يتصل بسلسلة فضية . لم تقل شيئًا آخر ، مشى تريستران معها وبعد قليل عند الظهر شعر بالجوع الشديد . لم يجد سوى باقى رغيف خبز فى الكيس فبلله بماء بركة صغيرة تجرى جوارهما وتقاسمه معها . لكنها نظرت للرغيف فى اشمئزاز ولم تذقه.

كانا يمشيان وسط الغابة .. وسط أشجار كثيفة ، ومن الغريب أنه وجد نفسه يعرف الطريق. فجأة كان هناك مكان خال وسط الأشجار .. شعر تريستران أنه مكان تم إخلاؤه عمدًا .. لماذا ؟ لا يعرف ..

لكنه إذ دنا أكثر رأى فى مركز المساحة الخالية صخرة عليها تاج ذهبى مزخرف يلمع فى شمس الظهيرة . وقد ازدان بحجارة كريمة حمراء وزرقاء . كاد يذهب للتاج لولا أن مست الفتاة النجم يده وقالت :

ـ « اصبر .. هل تسمع طبولًا ؟ »

بالفعل هناك دقات من حولهما .. ثم دوى صوت أشجار تتهشم . ظهر حصان أبيض مغطى بالدم يحاول الهرب ، ثم استدار ليواجه مطارده .. كان المطارد أسدًا .. أسدًا ضخمًا بلون الرمل فى الظهيرة . كان يزأر فى وجه الحصان .

كان الحصان مذعورًا ، ولاحظ تريستران أن لديه قرنًا من العاج فى جبهته . وقف على قدميه الخلفيتين ووجه ضربة إلى كتف الأسد ، فزأر هذا ألمًا وتراجع . راح يدور حول وحيد القرن وهو يزأر زئيرًا يهز الصخور والوديان .. وثب على ظهر وحيد القرن فأنشب أسنانه ومخالبه فيه ، بينما وحيد القرن يحاول التملص والتخلص من الوحش على ظهره .

صاحت الفتاة :

ـ « أرجوك !.. أنقذه .. الأسد سيقتله »

لكن كيف يتدخل وهو لا يحمل أى سلاح حتى الماء ؟ .. كان يشم رائحة الأسد الحيوانية القوية ويرى التوسل فى وجه وحيد القرن ... توجه إلى التاج وحمله ، ثم مشى نحو الأسد وهو يتكلم بهدوء كأنه يخاطب ثورًا هائجًا فى مزرعة أبيه :

ـ « هلم .. اهدأ .. هذا هو تاجك »

تقدم أكثر بينما الأسد ينظر له فى دهشة .. ووضع التاج على رأسه بيدين ترتجفان . توقف الأسد .. تخلى عن وحيد القرن .. ثم مشى ببطء إلى حدود المساحة الخالية ، فلعق بعض جروحه ثم توارى فى الدغل .

زحفت الفتاة النجم نحو وحيد القرن وأراحت رأسه على فخذها فنظر لها وأغمض عينه .

جاء الليل وتناول تريستران عشاءه .. السماء مزدانة بألف نجمة تتألق .. الفتاة النجم كانت تتألق كذلك كأنها دهنت نفسها بطريق اللبانة .

كانت تغنى أغنية للحيوان ..

راح يصغى للأغنية حتى غلبه النوم وهو يتحسس السلسلة التى تربطها

* * *

انطلقت عربة الساحرة الملكة فى طريق الغابة . لاحظت نيران الطهى من بعيد وقد أدركت من لون النار أنها نار واحدة من قومها . ربطت لجام التيسين اللذين يجران العربة واتجهت لعربة الغجر زاهية الألوان الواقفة. ورأت المرأة العجوز التى اكتسب شعرها لون الحديد، الجالسة جوار النار، تبصق فيها . رائحة شواء أرنب على النار ممتزجة برائحة الخشب المحترق .

صرخ طائر منذرًا عندما رآها فقالت العجوز دون أن تنظر:

ـ «قبل أن تقولى أى شىء فأنا امرأة مسنة ضعيفة تبيع الورد ولم أؤذ أحدًا فى حياتى .. يخيفنى أن أرى امرأة قوية مثلك »

ـ «لن أؤذيك... أقسم بقوانين الأخوية التى تربطنا ، أقسم بشفتى وصدرى أننى لن أضرك .. »

ـ «هذا يناسبنى ويسرنى أن تنضمى للعشاء معى .. اسمى سيميل»

ثم نظرت للتيسين اللذين يلتهمان العشب وقالت:

ـ «إن نظرى قد هرم يا عزيزتى .. لكن يخيل لى أن أحد هذين التيسين بدأ حياته على قدمين .. أليس كذلك ؟ »

قالت الساحرة باسمة :

- « تعرفين أن هذه الأشياء تحدث .. مثل طائرك هذا »

- « يطلقون علىّ السيدة سميل »

- « يمكنك أن تطلقى علىّ اسم موروواننج .. »

كانت دعابة لأن معنى الاسم (موج البحر) وكانت تؤمن أن اسمها الأصلى قد غرق فى البحر. دخلت العجوز العربة ، ثم عادت حاملة طبقين من القش وإناءين وأدوات طعام، وقالت :

- « كنت سآكل بأصابعى الطعام الذى أضعه على ورقة شجر .. لكن فرصة صحبتك تستحق احتفالاً »

وبسكينين قسمت الأرنب المشوى إلى قسمين متساويين .. وقدمت للساحرة الملكة نصفًا ... قالت الأخيرة وهى تتذوق :

- « لذيذ جدًا .. يمكننى تمييز الريحان والزعتر ضمن الأعشاب، لكن هناك رائحة لا أعرفها »

- « هذا عشب ينمو فقط فى جزيرة جاراموند .. له خواص عدة، من ضمنها أن من يأكله لا يقول سوى الحقيقة لفترة طويلة ! »

ألقت الساحرة بالطبق وهتفت:

- « عشب الليموس ؟ هل جرؤت على إطعامى عشب الليمبوس ؟ »

ضحكت العجوز وقالت :

ـ « يبدو هذا .. والآن قولى يا عزيزتى الهدف من رحلتك .. ولماذا تذكريننى بشخص ما ؟ »

ـ « أبحث عن نجم سقط فى الغابة عند جبل بيلى .. سوف أمسك بالنجم وأمزقه بالسكين وأخرج القلب بينما هو ينبض .. هذا هو علاج الشيخوخة وأخواتى ينتظرنه فى شغف »

راحت العجوز تركض فى مرح :

ـ « هاها .. قلب نجم .. سوف أستعيد شبابى وأتخلص من كل هذا الشعر الشائب .. سألتهم القلب كله »

قالت الساحرة الملكة فى حقد :

ـ « أنا لن أستطيع أن أؤذيك لأننى أقسمت بشرف الأخوية . لكن دعينى أؤكد لك أنك لن ترى النجم أو تذوقيه أو تشميه .. لن تعرفى ما فى يدك ... ودعينى أؤكد لك أنه لولا قسمى لمسختك خنفساء سوداء ، ثم انتزعت كل أقدامك وتركتك للطيور .. »

نظرت لها العجوز فى رعب وسألتها:

ـ « من أنت حقًا ؟ »

ـ « كنت أحكم كارنادين مع أخواتى قبل أن تُفقد .. »

ـ « معنى هذا أنك ميتة منذ زمن سحيق .. »

ـ « قالوا إن الليليم قتلوا .. هذا كذب .. السنجاب لم يجد بعد شجرة البلوط

التى سيقطع منها الخشب الذى يصنع مهد الطفل الذى سيكبر ليقتلنى ! »

ثم نهضت وطوحت بالطبق بما فيه من لحم فى النار وقالت :

ـ « بمجرد أن أرحل سوف تنسين كل شيء عن لقائى .. لن ترى أى شيء يتعلق بقصتى ... لكن تبقى ذكرى غامضة تؤلمك كالألم الذى يشعر به الطرف المبتور »

هنا فوجئت العجوز بطبقها يحترق فى النار ويرسل دخانًا كثيفًا .. كانت تجلس وحيدة .. وراحت تتساءل عن السبب الذى جعلها تلقى بطبقها فى النار. سمعت من بعيد دقات طبول ، كأنه صوت حوافر تيوس تجر عربة. قالت لنفسها إنها تشيخ ولا حل لمنع ذلك .. قالتها للطائر الذى وقف يراقبها والذى رأى كل شيء ولم ينسه.

* * *

ظل وحيد القرن يمشى خلفهما طيلة الصباح . ومن وقت لآخر يدفعها بقرنه . الجروح تملأ جلده وقد بدأت تلتئم . كان تريستران يفكر فى ركوب وحيد القرن . هو ليس حصانًا ولم يوقع أيًا من المعاهدات القديمة بين الإنسان والحصان . شعر أن وحيد القرن يميل للفتاة النجم ويحبها. هكذا اقترح أن يحملها وحيد القرن على ظهره طيلة الطريق.

مال على وحيد القرن وسأله إن كان يفهمه .. تمنى لو يضرب الأرض بحصانه كجواد ذكى . لم يتكلم وحيد القرن لكنه اتجه للفتاة النجم وركع أمامها.

ساعد تريستران الفتاة على الصعود .. وهكذا بدأ الترحال. ومشى هو جوار وحيد القرن وقد حمل عكازها وكيس الطعام يتدلى من طرفه. بينما يلف يده على السلسلة التى تربطها .

كان الجوع يمزقه فعلًا .. وشعر بأنه سيسقط .. فطلب من وحيد القرن أن يتوقف .. وصعد على تلة وانحدر منها ليجلس على ظهر الحيوان. لم يكن ركوب وحيد القرن كركوب الفرس .. بل هو نوع من السباحة فوق الموج . كان يخب ببطء بينما مالت الفتاة للأمام واعتصرت معرفة وحيد القرن . وشعر تريستران أنه برغم توجسه وقلقه يشعر بالمتعة لركوب وحيد القرن هذا .

أخيرًا عند الحدود توقف الموكب فترجل والفتاة .. قال لها إنه يتضور جوعًا، فقالت :

ـ «نحن نأكل الظلام فقط .. ونشرب النور. لست جائعة »

قال لها إنه ذاهب للقرية ليجلب طعامًا .. وحيد القرن سوف يحميها. فسألته وهى تجذب السلسلة :

ـ «سأنتظر هنا ؟؟؟»

حاول فك السلسلة بلا جدوى .. كانت تربطه لها كما تربطها له .. فكر فى أن تكون هناك كلمة سحرية ما ثم خطر له أن يقول: « من فضلك ». هنا انزلقت السلسلة وتحررت يده ..

طلب منها ألا تهرب بينما يذهب للمدينة ليجد طعامًا ، فضربت على قدمها

وقالت :

ـ « لا أحسبنى قادرة على الجرى لفترة طويلة »

أقنع نفسه بهذا ..

تركها ومشى نحو القرية .. لم تكن هناك حانة لكن فلاحة مسنة أصرت أن تصحبه لكوخها ، حيث قدمت له قطعة عجين بالشعير والجعة .. قايض منديله مقابل بعض الجبن والخمر ، وباعته المرأة بعض التبن لوحيد القرن .

عاد بما أخذه من المرأة مسرورًا وتمنى لو ترضى الفتاة النجم بتذوق شيء.

فى البداية حسب أنه ضل الطريق .. لكن لا .. هذه هى نفس شجرة البلوط فى ضوء القمر. لكن لا أحد. شعر بشعور من السقم والغباء وراح ينادي:

ـ « مرحبًا !.. »

ألقى بالتبن على الأرض وركله.

لقد اتجهت الفتاة النجم إلى الجنوب ..تتوهج وتنطفئ بالنور ، حتى لتبدو لمن يراها من بعيد كنجم. شعر الفتى بالندم والحماقة .. ما كان يجب أن يطلق سراحها. كان يجب أن يربطها لشجرة. راح يتعثر فى جذور الأشجار حتى سقط أرضًا .. وجد نفسه أسفل شجرة فتوسد الحقيبة وراح يجتر مشاعر الرثاء إلى أن غاب فى عالم النوم .

الفصل السادس
ما قالته الشجرة

كان يحلم .. يحلم بأن القمر يميل عليه ويطلب منه أن ينقذ ابنته من مصير مرعب . ثم سمع الشجرة تتكلم بصوت أنثوى .. خيل له أنه يرى وجه امرأة بين الغصون .. كأنها شجرة مسحورة . قالت له الشجرة إن الفتاة النجم فى خطر مخيف .. هناك من يطاردها .. الأشجار ترى كل شىء، وتنقل الأخبار بالريح....

سوف تصل عربة مهمة من هذا الطريق .. عليه أن يلوح لها ..

ـ « مد يدك »

قالتها الشجرة فمد يده .. سقطت ورقة شجر بلون النحاس ببطء على كفه ..

قالت الشجرة:

ـ « أبقها فى مكان أمين .. أصغ لها عندما تحتاج لها بقوة.. العربة قريبة .. اجرِ . اجرِ »

وضع الورقة فى جيب قميصه وجرى نحو العربة .. كان صوت الحوافر قادمًا من بعيد وكان يقترب. لم يعد يشعر سوى بخفقان قلبه وفحيح الريح فى أذنيه . العربة التى ظهرت كانت عربة سوداء تجرها أربعة خيول سود ويقودها رجل شاحب يلبس معطفًا أسود . وقف يلوح ويحاول التنفس بصعوبة .. حاول الصياح فأصدر أزيزًا ..

مرت العربة به ولم تتوقف . نهض وقد أدرك أن الفرصة فاتته.. مشى بضع خطوات ففوجئ بالعربة واقفة .. هناك جذع شجرة عملاق يسد الطريق .. وكان الحوذى الذى هو الراكب الوحيد يحاول رفع الجذع .

قال الرجل بصوت غليظ :

- «ألعن شيء حدث .. لم تكن هناك ريح أو عواصف وبرغم هذا سقط وأفزع خيولى »

تعاون الرجلان مع الخيول على دفع الغصن العملاق إلى جانب الطريق . وفى سره شكر تريستران الأشجار التى ساعدته ، وطلب من الحوذى أن يقله معه. قال الرجل وهو يحك ذقنه :

- «أنا لا آخذ ركابًا »

قال تريستران:

- «هذا صحيح .. لكن من دونى لبقيت هنا للأبد. العناية الإلهية أرسلتك لى كما أن العناية الإلهية أرسلتنى لك . ولربما جاءت فرصة أخرى احتجت فيها ليدين تساعدانك »

نظر له الحوذى ثم مد يده فى جيبه وأخرج حفنة من الحجارة الحمر المنقوشة، وطلب منه أن يختار واحدًا . انتقى تريستران حجرًا وعرض النقش على الرجل، فقال هذا :

- «يمكنك أن تأتى معى .. إن الآلهة الرونية واثقة بك .. يمكنك الركوب

جوارى إذا أردت »

صعد تريستران إلى مقعد السائق.. نظر لداخل العربة فوجد خمسة رجال شاحبين ينظرون له فى حزن، وفى اللحظة التالية لم يعد هناك أحد. أدرك أنه يتخيل.

سأل الحوذى :

ـ « أرجو ألا أتجاوز حدودى .. لكن ما الذى تبحث عنه ؟ »

قال الرجل :

ـ « عن قدرى .. عن حقى فى الحكم وأنت ؟ »

ـ « حسناء أردت أن أنال رضاها .. »

واندفعت العربة وسط طرق وعرة كأنها الجبال .. فشهق الفتى رعبًا ..

قال له الرجل :

ـ « يومًا ما ستزور قلعتنا فى ستورمهولد .. تلك هى الجبال الحقيقية .. كنا ننظر من فوق قلعتنا إلى هذه الجبال الصغيرة باعتبارها حجارة لا أكثر.. أنا لورد بريموس »

ـ « وأنا تريستران ثورن »

* * *

يقال إنه فى قديم الزمان كان الجبل عملاقًا شديد الضخامة وشديد الكسل . عجز ذات يوم عن المشى فنام على الأرض وتحجر .. لهذا هناك

ركبة الجبل وعنق الجبل وكتف الجبل وقدما الجبل. هناك ممر يمر بين رأس الجبل وعنقه . تعيش فى هذه الجبال وحوش مخيفة وأقزام وكائنات مشعرة ..

كانت الساحرة الملكة قد عبرت جنوب بطن الجبل . راح التيسان يرعيان، بينما راحت هى تسن نصال سكاكينها التى ستمزق بها النجم. ثم أنها اتجهت للتيسين وهمست لهما كلمة سحرية . فجأة صار هناك رجل ذو لحية شائبة وفتاة حسناء بدل التيسين. ثم إنها اتجهت نحو العربة .. قالت وهى تلهث :

- «إننى أشيخ .. لو استعدت قواى لحكمت المدن ولغيرت خرائط الكون»

ولفظت عبارة ما فاندلع لهب أزرق .. ولمست العربة بأناملها.. توهجت ....

صارت هناك شعيرات بيض فى رأسها.. لكن العربة اختفت .. مكانها ظهرت حانة صغيرة ... دوى الرعد وسطع البرق، ثم راحت اللافتة تتراقص مع الريح وقد رسمت عليها عربة . قالت الساحرة لمرافقيها:

- «هى سوف تمر من هنا حتمًا .. أنت بيلى مالك الحانة وأنا زوجتك.. أما هى فستكون ابنتنا .. »

بيلى هو التيس .. والابنة هى بريفيس ..

دوى الرعد من جديد فقالت الساحرة :

ـ « سوف تمطر ثانية .. تعاليا نعد النار »

* * *

كان المطر ينهمر بغزارة ، حتى شعر تريستران بأنه لا يمكن أن يبتل لهذا الحد إلا لو سقط فى البحر . هنا صاح مرافقه بريموس أنه يرى نورًا من بعيد ..

ـ « هذه البلاد شريرة ، ، أرجو ألا يكون نورًا خادعًا ... لو كانت حانة لأمكننا أن نتناول العشاء ونجفف ثيابنا ونجلس أمام النار .. وننام فى فراش نظيف .. »

أسرعت الجياد أكثر .. وهنا بدأ المشهد يتضح .. فهتف بريموس:

ـ « حمدًا لله .. إنها حانة ! »

الفصل السابع

عند علامة العربة

كانت الفتاة النجم مبتلة تمامًا وكانت قلقة على وحيد القرن، فهما لم يجدا طعامًا طيلة آخر أيام الرحلة . كما أن حوافر وحيد القرن الرقيقة لم تكن معدة للجبال والصخور .. ولم يكن قادرًا على حمل ركاب.

كانت تلعن اليوم الذى سقطت فيه من السماء .. كانت الأرض تبدو لطيفة حنونًا من السماء .. الآن تكره كل شيء فيها ما عدا وحيد القرن . وبعد يوم من الصراع كانت لافتة الحانة أروع منظر رأته فى حياتها . توقف وحيد القرن قرب الحانة ورفض أن يدنو، فانفتح الباب وخرج منه ضوء ذهبى .

نادى صوت ودود من الباب :

- «تعالى يا عزيزتى»

همست الفتاة بكلمات رقيقة فى أذن وحيد القرن، لكنه رفض التحرك.

عاد الصوت يقول :

- «هلم يا حسناء .. لو كنت تريدين طعامًا فلدينا طعام .. هناك نار متوقدة وماء ساخن يذيب الجليد عن عظامك»

قالت الفتاة فى ألم :

- «لا أستطيع الاقتراب .. ساقى ... »

- «آه يا عزيزتى .. سوف يحملك زوجى بيلى .. الإسطبل فيه تبن وماء للدابة»

دنت المرأة المسنة بحذر من وحيد القرن المتوتر ، ثم أسلم نفسه لها متجهًا إلى الإسطبل . وهناك ركع وسط القش الجاف بينما انزلقت الفتاة من على ظهره .

كان بيلى رجلًا أشيب الشعر قليل الكلام . حمل الفتاة للحانة ووضعها على مقعد أمام النار . طردت صاحب الحانة زوجها ثم نزعت ثياب الفتاة المبللة وعلقتها على المدفأة .. فراحت قطرات الماء تتساقط .. ثم أحضرت حوضًا وضعته أمام النار وملأته بالماء . لم تكن الفتاة العارية قد أخذت أى حمام من قبل . تركتها المرأة فى الحوض وذهبت للمطبخ لتحضر بعض الخمر واللفت. كان الماء دافئًا وبدأت الفتاة النجم تشعر بالنشوة والراحة .

عادت المرأة فسألتها عن حالها ، ثم سألتها عن قلبها . بدت الدهشة على الفتاة لغرابة السؤال ، ثم قالت :

– «هو دافئ متوهج »

– «جميل .. جميل يا بطة .. أنت فتاة عزيزة »

ثم علقت معطفًا لتلبسه الفتاة بعد الحمام . ومددت يدها لتلمس صدر الفتاة بين نهديها وقالت:

– « قلب طيب .. جميل !! »

قالت الفتاة لنفسها إن هناك أناسًا طيبين برغم كل شيء فى هذا العالم. ساعدتها زوجة صاحب الحانة مع ابنتها ذات الوجه الغبى على مغادرة الحوض ولاحظت الحجر الكريم والسلسلة الفضية حول معصم الفتاة. ثم

إنها ساعدتها للجلوس إلى المائدة .

هبت الريح بالخارج ثم جاء صوت عميق ينادى :

ـ «طعام !.. خمر !.. نار !.. أين سايس الإسطبل ؟»

نظرت صاحبة الحانة لزوجها وابنتها ثم زمت شفتيها وقالت :

ـ «يمكننا الانتظار .. أنت لست ذاهبة لأى مكان يا عزيزتى بساقك هذه»

كان ضوء الحانة أروع شيء رآه تريستران فى حياته . فك لجام الخيول وقادها للإسطبل حيث كان حصان أبيض يقف هناك لكنه لم يتفحصه فى الظلام . كان عليه أن يجفف الخيول أولًا قبل أن يظفر بالدفء والطعام وإلا أصابها البرد، لذا طلب من بريموس أن يدخل أولًا . بعد قليل جاءت فتاة لها وجه غبى تحمل له إبريقًا من الخمر الساخنة فطلب أن تضعه أرضًا.

راح ينزع صخرة كبيرة محشورة فى حافر الحصان ، عندما استدار الحصان الأبيض ثم جرى نحوه .. هنا أدرك أنه ليس حصانًا .. بل إن لديه قرنًا فى جبهته. هجم الحصان على الإبريق ونطحه .. فانسكب على الأرض ...

هنا فقط بدأت ذكريات قديمة تتداعى فى ذهن تريستران .. هل كان هذا الإبريق يحتوى على .... سم ؟

رفع وحيد القرن رأسه ونظر لعينى تريستران. عرف تريستران أن هذه هى الحقيقة ..

كانت الريح تعوى فى جنون بينما ركض تريستران لباب الحانة. فجأة

شعر بحافز دعاه للبحث فى جيبه .. وجد ورقة شجر نحاسية ملتصقة ببقايا الشمعة الذائبة . رفعها لأذنه فسمع..

صاحبة الحانة تكلم بريموس عارضة عليه الخمر ..

قال لها بريموس :

ـ « لا .. منذ وفاة أخى وأنا لا آكل ولا أشرب إلا ما أحمله معى .. والآن هلا أخبرتنى عن مكان النوم ؟ هل هناك مدفأة ؟ هل الأسرة ذات مَلَّة قوية ؟ سوف أدفع قطعة من الفضة »

ثم إنه رأى الفتاة النجم فتساءل إن كانت هذه ضيف آخر ... دنا منها ونظر فى عينها .. فجأة هتف :

ـ « أنت ! »

ثم ارتجف وقال:

ـ « معك حجر التوباز الخاص بأبى ..أنت تملكين قوة آل ستورمهولد »

نظرت له بعينين زرقاوين ، فهرعت صاحبة الحانة لتقف أمامه وصاحت :

ـ « لن أتركك تضايق ضيوفى .. »

هنا انفتح باب الحانة بقوة وظهر تريستران يصيح :

ـ « بريموس ! لقد حاولوا أن يسممونى ! »

مد بريموس يده لسيفه القصير، فتناولت الساحرة أطول سكين لديها وفى لحظة واحدة قطعت حلقومه ..

لم يستطع تريستران متابعة ما يحدث .. فجأة رأى نافورة دم تتدفق من بريموس ...

جرى بيلى والفتاة ابنة صاحب الحانة نحو تريستران ، هنا انفتح الباب ثانية وظهر وحيد القرن. وقف على قدميه الخلفيتين وضرب الفتاة ثم خفض رأسه ونطح بقرنه صاحب الحانة ..

- «غبى»

وانقضت الساحرة على وحيد القرن، وخنجر فى كل يد ..

زحف تريستران على يديه وركبتيه وكذا فعلت الفتاة ..

عوت الساحرة فقد اخترقها وحيد القرن بقرنه فى الكتف.. واستعد كى يطأها بقدمه، لكن الساحرة استطاعت أن تلتقط قطعة زجاج وتغمدها فى عين وحيد القرن حتى الجمجمة ..

سقط الحيوان على الأرض والدم ينزف من عينه وفمه. نهضت الساحرة ونزعت القرن من كتفها ثم التقطت الشاطور وهى تترنح. بحثت عن الفتاة ثم مشت نحوها وهى تضحك ضحكة شريرة ..

أمسك تريستران بيد الفتاة النجم .. وأمرها أن تنهض:

- «قومى أو موتى !»

استجمعت قواها ونهضت .. أمسك ببقايا الشمعة ودفن يده فى النار وصرخ ..

هنا اشتعل الفتيل وتوهج العالم ... همس للفتاة:

ـ « أرجوك أن تمشى .. لا تتخلى عنى »

لم تستطع الساحرة الدنو منهما .. غادرا الحانة وهما يسمعان عواءها ..

كان لهب الشمعة يتراقص .. وبعد مسيرة بسيطة وجدا نفسيهما وسط صحراء من الرمل الأبيض فى ضوء القمر.. وبخطوة أخرى صارا فوق مستوى الأرض .. يريان الجبال والأشجار والأنهار .

كانت هذه نهاية الشمعة، وسال الشمع الساخن ليحرق يد تريستران.

الفصل الثامن
ويتحدث عن القلعة الطائرة وأشياء أخرى

مشى لورد سبتيموس ستورمهولد طويلًا شبيهًا بالغراب ، صاعدًا الجبل وهو يفتش حوله . رأى عربة صغيرة مقلوبة .. جوارها جثة تيس غرقت رأسه فى الدم .. قرب الجثة توجد جثة فتى غبى الملامح ، لا يمكن أن تعرف كيفية وفاته . ثمة جسد رجل راقد على بطنه .. دنا منه سبتيموس فأدرك أن حلقه قد قطع من الوريد إلى الوريد، وقد نزف كل دمه على الأرض ..

على الفور عرف من هو ..

هتف ضاحكًا :

-«لحيتك !.. لقد حلقت لحيتك كأننى لن أعرفك يا بريموس»

ثم وقف فى شعاع الشمس وهتف :

-«كذا صرت أنا السيد الثانى والثمانين على قلعة سبتيموس .. أنا سيد قلعة هوون وكل شىء»

هنا همس شبح كوينتوس فى أذنه :

-«ليس من دون حجر التوباز الذى يمثل قوة ستورمهولد حول عنقك»

وقال سيكوندس:

-«وليس قبل أن تنتقم من قاتل أخيك.. هذا هو القانون.. ثمة مقولة

تقضى بألا تعد كتاكيتك التى لم تفقس بعد »

اتجه سبتيموس ليحمل جثة أخيه بكثير من العسر ، فيلقيها على حصانه .. وقد انتوى أن يتركه على جرف عال لتأكله النسور . وراح يسبه لأنه لم ينتظر قليلاً قبل أن يموت . لو قتله هو لتحرر من هذا القانون السخيف .

* * *

جلسا فوق سحابة طرية ناعمة .. غرس تريسترانيده فى السحابة ليتلذذ بشعور البرد الذى يخفف ألم يده المحترقة .

قالت له الفتاة النجم :

ـ « أنت أنقذت حياتى .. كنت أكرهك .. الآن أكرهك أكثر »

ـ « هل من تفسير ؟ »

ـ « لأن قانونًا شعبيًا يحتم أنه ما دمت أنقذت حياتى فأنا ملك لك للأبد »

من بعيد كان يرى العالم الحقيقي، وقد سطعت الشمس فصارت الأنهار خيوطًا من فضة. قالت الفتاة له :

ـ « أخواتى يسميننى (إيفين) .. لأننى نجم ليلى »

قال لها :

ـ « تركت حقيبتى فى حانة الساحرة . ليس لدينا شيء سوى الثياب التى علينا .. لا طعام ولا ماء ونحن فى السماء بلا طريقة للهبوط .. لو انقشعت

هذه السحابة لهوينا »

كان يشعر بجوع شديد ، وتساءل لماذا لم يكن أبطال القصص الرخيصة التي يطالعها يعانون الجوع .

راح ينادى فسألته عن سبب مناداته ، قال لها :

ـ « أنادى أناسًا غير موجودين .. هذا أفضل من أن أنادى أناسًا موجودين وأنا لا أراهم »

ثم أضاف :

ـ « فكرت فى الأمر .. سوف أحملك معى إلى وول وأهديك لحبيبتى فكتوريا، وبعد هذا أطلق سراحك لتعودى للسماء »

ـ « هذا مستحيل .. النجوم التى تسقط لا تعود للسماء »

هنا دوى صوت من تحت يصيح:

ـ « أهوى !.. هل هناك من يريد مساعدة ؟ »

فى ضوء القمر رأيا سفينة تجوب الفضاء فى ضوء القمر . ورأيا رجلًا ذا شارب كث يقف على ظهرها ويحدق فيهما ..قال إنه سينزل لهما سلمًا ليصعدا بـه إلـى سفينته ، فقال تريستران إن يده تؤلمه ورجل الفتاة مكسورة . قال الرجل إنه لا مشكلة .. سوف يرفعهما.

وبدأ سلم من حبال ينزلق من أعلى فتمسك به تريستران وتمسكت به

الفتاة. ثم سمعوا من يتصايح للشد .. وبدأ الحبل يرتفع .. لم تعد السحابة تحتهما بل بدت بقعة على بعد ميل .

رحب بهما الرجل :

ـ «هـذه السفينة الفضائية برديتا التـى تقوم بمهمة صيد للبرق . أنا القبطان يوهان ألبريتش فى خدمتكما »

ضمدوا جراحهما وقدموا لهما الطعام فى (الميس). أما عن الشراب فكان أنقى وألذ ماء تذوقه تريستران فى حياته. وقضى تريستران أيامًا سعيدة فعلًا على ظهر السفينة .. وتعلم كى يفرد الشراع ويدير عجلة القيادة. قال له القبطان إنهم سيرسون خلال أسبوع للتزود بالمؤن، فيمكنه أن ينزل هو والفتاة وقتها. لقد استعادت الفتاة صحة قدمها.. ستكون وول على بعد سفر عشرة أسابيع من نقطة الرسو.

قال لتريستران فى غموض :

ـ «لا تحسب أننى وجدتك بالصدفة . الحقيقة أننى كنت أبحث عنك . لا تقل وجهتك لأى شخص ، واطلب من الفتاة التى معك أن تأكل طعامًا من وقت للآخر إذا أرادت أن يحسبها الناس طبيعية »

فكوا الجبيرة عن ساق الفتاة ، ثم راحت تتعلم الوثب مستندة إلى حاجز السفينة.

رست السفينة جوار سفن أخرى فوق قمم الشجر . أشجار عملاقة

تسمح بأن تتمسك بها السفن ، وهناك درجات سلالم حول الجذع . شعر تريستران براحة لأنه يمشى على أرض صلبة . واحتاج لثلاثة أيام حتى زال شعور الدوار .

سافرا للغرب نحو الشمس الغاربة . كان تريستران يعمل مقابل الطعام والنوم فى الجرن . لقد لوحت الشمس وجهه حتى صار هو وثيابه بلون الصدأ .. أما إيفين فقد ظلت شاحبة كالقمر وظلت تعرج قليلًا . وفى الليل كانت تغنى بصوت مذهل ، جعل تريستران يغيب فى نشوة عميقة يرى معها كرات بلورية لامعة ونجومًا .. لم يعرف هل استغرق الأمر ساعات أم أيامًا ..

قال لها إنه لم يسمع مثل هذا قط ، فقالت له :

- «أحيانًا كنت أغنى أنا وأخواتى .. نغنى عن أبينا القمر وعن طبيعة الزمن .. وعن الوحدة »

قال لها :

- «أنا آسف »

- «لا تعتذر .. على الأقل أنا حية .. لربما كنت موفقة عندما سقطت فى أرض الجان وعندما قابلتك »

فى موعد الإفطار ، كان يمشى فى الغابة ويحاول التقاط بعض الفطر والكرز ، عندما وجد طائرًا جميلًا ذا ريش متعدد الألوان . كان متورطًا فى

سلسلة فضية تعثرت بها قدماه وكان يحاول التملص . أمسك به وراح يفك السلسلة .. لما تحرر الطائر أمره أن يطير ويعود لصاحبه .. لابد أن هناك شخصًا قلقًا عليه ..

فجأة ضربه شىء من الخلف بقوة، وسمع صوت امرأة عجوز تصيح :

ـ « لص !.. سارق !.. عديم الشرف !.. تسرق طائرى »

قال لها وهو يتفادى ضرباتها:

ـ « بالعكس ،، أنا أنقذته .. كان متورطًا فى تلك السلسلة .. »

أصدر الطائر صوتًا مرحًا كأنه يؤيد كلام تريستران ، فضاقت عينا المرأة وقالت :

ـ « ربما كان ما تقوله ليس حزمة أكاذيب .. »

وقبل أن يتكلم كانت المرأة وطائرها قد اختفيا عبر فرجة فى الأشجار.

عاد لإيفين التى كانت جالسة تمسك ساقها المصابة وتبكى من الألم، وحكى لها قصة تلك المرأة .. بدا له هذا غريبًا ..

هنا رأى نفس المرأة قادمة من بعيد . كانت تقود عربة قافلة يجرها بغلان . نادته بإصبع واحدة فهرع نحوها . قالت له:

ـ « أنا مدينة لك باعتذار .. تسرعت فى اتهامك »

مدت إصبعها لترفع ذقنه فوجد أنه يحدق فى عينيها الخضراوين :

- «تبدو أمينًا صادقًا .. اسمى مدام سيميل .. أنا ذاهبة لوول من أجل السوق . كنت أفكر فى أننى أريد فتى يبيع الأزهار فى متجرى .. أزهارًا من زجاج . ما رأيك ؟ »

فكر تريستران ثم قال :

- «لحظة »

ثم عاد للفتاة وتشاور معها . ومعًا نهضا ليعودا للمرأة .. قال لها:

- «فكرنا فى عرضك .. »

- «حسن .. لا تقف بهذه البلاهة !.. تكلم ! »

قال تريستران :

- «لدى أعمال أخرى فلن أعمل معك . لكن لو سمحت لنا بالركوب فسوف ندفع لك »

هزت رأسها وقالت :

- «هذا غير مفيد لى .. ستكون عبئًا علي.. لا أريد مسافرين »

- «سوف ندفع لك »

- «ما دمت لن تعمل معى فلا قيمة لركوبك »

مد يده فى جيب قميصه ثم أخرج شيئًا وقال :

ـ « أنت تبيعين الزهور الزجاجية .. هل تهمك هذه ؟ »

كانت ندفة ثلج صنعت من زجاج أخضر كأنها تم جمعها من عشب مرج هذا الصباح. تأملتها المرأة فى جشع ثم هتفت :

ـ « من أين جئت بها ؟ هاتها لى .. هاتها لى حالًا .. »

تراجع تريستران خطوتين وقال :

ـ « الآن اكتشف أننى أعشق هذه الزهرة .. هى هدية من أبى وأثق بأنها جلبت لى الحظ .. سوف أحتفظ بها وأمشى مع رفيقتى إلى وول »

راح وجه المرأة يترجرج بسبب محاولتها مقاومة التهديد والتدليل ... فى النهاية تماسكت وقالت بصوت متماسك:

ـ « لا داعى للعجلة .. أنا واثقة من إمكان عقد صفقة »

قال تريستران :

ـ « يجب أن تكون صفقة ممتازة تضمن لى وصديقتى أفضل وضع ممكن »

ـ « سوف أنقلك لوول . وأقسم بشرفى أننى لن أؤذيك »

لم يكن تريستران يثق بالعجوز ، فطلب منها أن تكرر القسم .. وأن تعدهما بأن يصلا بحالة طيبة كما هما الآن إلى وول . هزت العجوز رأسها .. بصقت على التراب ثم أشارت لتريستران كى يبصق ففعل جوار بصقتها. خلطت البصقتين بحذائها وقالت :

- «الصفقة هى الصفقة .. هات نُدفة الثلج»

ناولها تريستران الزهرة وهو يرى الجشع فى عينيها ، فخطر له أنه كان بوسعه عقد صفقة أفضل . قالت له :

- «هل تعرف ما هذا الشيء يا بنى ؟ إنها تعويذة مجمدة .. يمكنها عمل المعجزات لو وقعت فى يد صحيحة»

مرت النُدفة على جبينه فشعر بأن ممسات غريبة تسرى فى عروقه ، وللحظة شعر أن العالم يتضخم وأن المرأة صارت عملاقة . لقد تحول إلى سنجاب . قالت له :

- «سوف أبر بوعدى وأوصلك سالمًا إلى وول»

ووضعته فى جيب مريولتها ثم صعدت إلى العربة . هتفت الفتاة فى رعب : «وماذا تنوين أن تعملى بى ؟» .

كان داخل العربة يحوى فراشين ونافذة . تناولت المرأة قفصًا خشبيًا من تحت الفراش ووضعت السنجاب فيه . ثم جمعت قبضة من البندق والكستناء ووضعتها داخل القفص . هنا قالت الفتاة:

- «هل لى أن أستنتج لأنك لم تنظرى لى أو توجهى لى الكلام .. سحرت مرافقى ولم تردى علىّ .. هل لى أن أستنتج أنك لا ترينني ؟»(*)

(*) نذكر أن ملكة الساحرات لعنتها ، فجعلتها لا ترى النجم ولا تذكر القصة أصلا .

لم ترد الساحرة . اتجهت لمقعد الحوذى وأمسكت باللجام. وقالت مكلمةً طائرها :

ـ « سوف أحفظ كلمتى .. عندما نصل للسوق سوف يعود لحالته. هكذا هو أسهل لى .. لن يسأل أسئلة .. كما أنه لن يكلفنى فى إطعامه أكثر من بعض البندق »

وانطلق البغلان عبر أشجار الغابة . رقدت إيفيان على فراشها الذى يهتز ويتأرجح . ومن حين لآخر تصعد لظهر العربة لتراقب النجوم. عندما كانت الساحرة تنام كان الطائر يقف جوار الفتاة النجم .

وكانت تطمئن على السنجاب الذى قضى وقته فى النوم وقد ثنى ذيله حول جسمه. وكانت تربت عليه وتغنى له برغم أنها لم تعرفن كان وعيه هنالك.

لم تعد قدمها تؤلمها ؛ لأنها لم تعد مضطرة إلى المشى، وكان من الواضح أن الساحرة عاجزة تمامًا عن رؤيتها. هكذا استغرقت الرحلة أسابيع.

الفصل التاسع
ويحكى عن أحداث سدّ ديجورى

سد ديجورى هو منخفض من العشب الأخضر والأرض الحمراء المغطاة بالطبشور، حيث التربة شحيحة . من بعيد يبدو السد كأنه خط بالطبشور على لوح مغطى بالمخمل. قالوا إن فارسًا اسمه ديجورى شق هذا السد بسيفه . على من يتجه لوول أن يعبر هذا السد حيث يرتفع الطبشور على جانبى العربة .

من بعيد يخيل لك أن هناك مجموعة عصى نابتة من التربة ، ثم تكتشف أنه كوخ من جذوع أشجار وهناك فى المنتصف مدخنة يتصاعد منها الدخان .

الرجل المدثر بالسواد كان يتفحص العصى عن قرب ، بعد أيام طويلة من المراقبة. كأنه فأر يراقب جحر الفأر فى صبر. رأى المرأة داخل الكوخ. لم يكن معها أحد ويبدو أنه لا مهنة لها سوى استيقاف كل قافلة تمر.

لم تبد خطرة ... لكن سبتيموس لم يصر آخر شخص حى من إخوته بسبب ثقته فى بمظهر الغرباء. وهذه العجوز بالتأكيد هى من قطع حنجرة أخيه بريموس.

كان بحاجة إلى أخذ حياة مقابل حياة. كان يفضل السم الرائق عديم الطعم إذ يمتزج بالطعام، ولم يكن ميالًا للسيوف والنصال .

فكر فى وضع فطيرة ساخنة أمام بابها تتكون من التفاح والسم. ثم وجد الفكرة غير عملية. فكر فى دحرجة جلمود صخرى من أعلى الجبل ليهدم

كوخها لكنه لم يكن واثقا من أنه سيؤذيها .

فى منتصف الليل زحف سبتيموس نحو باب الكوخ ، ومعه قدر طبخ فى يد، وكتاب فى يد أخرى. وفى نطاقه عصا من خشب البلوط تبرز مسامير من رأسها ..

لم يسمع شيئًا من وراء الباب .. زحف إلى جانب المنزل بحيث يرى الباب. مزق صفحات من كتاب الشعر وكوّر الورق وقذفه عبر فتحات الكوخ . ثم راح يشعل نارًا تتسلل إلـى داخـل الكوخ . وبدأت العصى فى الجدران تشتعل .

عاد لباب الكوخ ولوح بالعصا ذات المسامير. فإما تحترق الساحرة بالداخل، أو ستهرب من الدخان فيضربها على رأسها بالهراوة .. ستموت وينفذ انتقامه .

قال له ترشيوس :

ـ « خطتك محكمة .. بعد قتلها ستعود لتظفر بقوة ستورمهولد »

توهجت النار... ولم يخرج أحد من الباب . صار المكان جحيمًا واضطر سبتيموس للتراجع للخلف. وابتسم شاعرًا بالنصر ..

هنا شعر بألم حاد عند كعبه . استدار فرأى حية لامعة العينين تغرس أنيابها بقوة فى حذائه. طوح بالهراوة لكن الكائن فر بسرعة وراء صخرة.

قال لنفسه لو كانت العضة سامة فلابد أن جلد الحذاء قد أفقدها قوتها.

لقد زال الألم. سوف أربط قدمى .. جلس على صخرة وحاول نزع حذائه لكنه لم ينتزع .. شعر بتنميل .. لابد أن قدمه تورمت بسرعة. سوف أمزق الحذاء ..

شعر بأن الظلام يسود ..

نظر بدقة فرأى أن النار التى أحالت سد ديحورى جحيمًا قد زالت.

ارتجف من البرد.

جاء صوت بارد من الخلف :

-«حسن .. حسبت أنك ستتدفأ بنيران كوخى ... »

لم يستطع الرد لأن عضلات فكه تقلصت... وراح قلبه يدق كطبل. لم يعد يستطيع التنفس وشعر بكل وريد فى جسمه كأنه أنبوب ينقل النار.

ظهرت امرأة عجوز .. لم تكن كتلك المرأة التى تسكن الكوخ بل أكبر سنًا بكثير. حاول أن يرمش لكنه نسى كيف .. لم يستطع غلق عينيه.

-«يجب أن تخجل من نفسك لمهاجمة عجوز ضعيفة لا يحميها سوى أصدقائها الصغار»

لم يستطع الكلام ولا التنفس.. وسمع أصوات إخوانه الستة يرحبون به.

قال لإخوانه :

-«لم يبق من ينتقم منها .. ولن يصير أى واحد منا سيد ستورمهولد ..

هيا بنا نرحل »

وسرعان ما تلاشى كل شىء.

* * *

نظرت الساحرة سيميل من فوق عربتها إلى الكوخ المتفحم وسط السد .. المرأة المسنة التى ترتدى ثوبًا قرمزيًا وتلوح لها. كانت لها عين عمياء وشعرها كان أبيض كالثلج. سألتها :

ـ « ماذا أصاب كوخك ؟ »

قالت العجوز :

ـ « صبية أشقياء ظنوا أنه من الممتع أن تشعل النار فى كوخ امرأة مسنة لم تؤذ أحدًا .. حسن .. لقد تعلموا درسهم »

بالطبع لم تعرف سيميل الساحرة الملكة ، فهى قد جعلتها تنساها بالسحر.

ـ « من الذين معك فى العربة ؟ »

شعرت مدام سيميل بأن الكلمات تخرج من فمها غصبًا .. قالت:

ـ « البغلان اللذان يجران العربة ...أنا .. خادمة أسجنها فى صورة طائر .. ورجل فى صورة سنجاب »

ـ « لا شيء سوى هذا ؟ »

ـ « لا أحد وأقسم بالأخوية »

زمت الساحرة شفتيها وأمرت مدام سيميل أن ترحل ..

فى العربة كانت الفتاة النجم تغفو غير عارفة كم اقتربت من نهايتها وكم هربت بمعجزة .

انحدرت الشمس نحو الغرب بينما هم يدخلون بلدة وول.

كانت الشمس تعمى عيونهم وصار عالمهم بلون الذهب . اقتادت مدام سيميل عربتها إلى حيث كانت تنوى أن تنصب متجرها ، وقادت البغلين إلى شجرة جوار الجدول ليشربا .

دخلت العربة وأخذت القفص فأخذته إلى تلة صغيرة ثم التقطت السنجاب النائم وقالت :

ـ « اخرج ! »

حك السنجاب عينيه بمخالبه ورمش فى ضوء النهار.

مدت يدها فى جيب المريولة.. أخرجت زهرة نرجس زجاجية ومست بها رأس تريستران . تثاءب تريستران ومرر يده عبر شعره ونظر للعجوز والغضب فى عينيه :

ـ « أنت أيها الشمطاء قد .... »

قالت بحدة :

- «أغلق فمك السخيف .. أنت هنا فى أمان وكما قابلتك .. منحتك المأوى والطعام كما وعدت. والآن اغرب عنى قبل أن أسحرك دودة »

ضغط على أعصابه وابتعد . ثم وقف ينتظر حتى خرجت الفتاة النجم من العربة .

سألته فى قلق :

- « هل أنت بخير ؟ »

- « نعم .. شكرًا لك »

فى الوقت نفسه وضعت مدام سيميل الطائر أمامها ثم لمسته بالزهرة، فانتفش ثم تحول إلى فتاة .. فتاة لها شعر أسود مجعد وأذنان كأذنى قط. نظرت الفتاة إلى تريستران .. شيء ما فى عينيها البنفسجيتين بدا مألوفًا. لم يستطع تذكر أين .

قالت إيفيان :

- « إذن هذه هى الطائر .. كان الطائر رفيقًا طيبًا طيلة الرحلة ... »

ثم لاحظت أن السلسلة الفضية التى تبقى الطائر ما زالت هناك . الآن هى حول كاحلها ..

اتجها عبر المرج نحو الفجوة فى الباب ، وقال لها:

- « سوف أزور أهلى أولا.. فأنا أفتقدهم وأعرف أنهم افتقدونى .. ثم

تزور فكتوريا فورستر .. »

توقف هنا ولم يبتلع فكرة أن يعطى النجم لفكتوريا ..لاحظ أن النجم ليس شيئاً يعطى بل هو شخص حى ..

فيما بعد سيفكر فى هذا .. الآن سيأخذ الفتاة للقرية .. وشعر بالذنب ؛ لأنه لا يستطيع تذكر لون عينى فكتوريا.

عند الفجوة كانت الفتاة مترددة ..

سألت تريستران:

- «هل تريد هذا حقًا ؟ .. لدىّ شكوك »

- «لا تقلقى ، لسوف تشعرين براحة عندما تجلسين فى الردهة مع أمى تشربين الشاى .. إن أمى من أجل عودة ابنها يمكن أن تحطم أفضل طاقم صينى لديها »

تلامست يداهما ونظرت له فى رقة .. واجتازا فجوة الجدار.

الفصل العاشر
غبـار النجـم

للمرة الثانية فى أعوامه الثمانية عشر يجتاز تريستران فجوة الجدار، وهو يشم روائح قريته. حيا الحارسين اللذين عرفهما على الفور .. ويستان بيبن .. زميله فى المدرسة والرجل الأكبر سنًا هو جيروم أمبروز .. رئيس تريستران السابق فى متجر مونداي. كان الرجلان ينظران للقرية كأنهما يتحاشيان النظر للمرج ..

حياهما تريستران فى أدب ، فنظر له الرجلان فى دهشة وانسكبت الجعة من ويستان .. وصوب جيروم عصاه إلى صدر تريتسران وصاح :

ـ « لا تقترب ! »

ضحك تريستران وقال :

ـ « هل لا تعرفاننى حقًا ؟ أنا تريستران ثورن .. لقد قمت بحراسة هذا الجدار مرارًا ... لا مشكلة من دخول الناس من هذا الاتجاه .. فقط من القرية »

قال الكهل :

ـ « حتى لو كنت أنت ثورن وأنا لا أرى أنك تشبهه أو تتكلم مثله، فهل تذكر كم غريبًا جاء من هذا الاتجاه ليدخل القرية ؟ »

فكر تريستران ثم قال أن لا .. فقال الكهل :

ـ « هل فهمت ؟ هذا ليس ممنوعًا ؛ لأنه لم يحدث قط .. الآن انصرفا »

قال تريستران فى غيظ:

ـ «لو ظننت أننى مررت بكل ما مررت به كى يردنى بقال مراب مثلك فأنت مخطئ»

هدأت الفتاة روعه:

ـ «أنت لن تتشاجر مع قومك»

هكذا صمت تريستران ومشى مع الفتاة عائدين للسوق، حيث ساعدا امرأة صغيرة الحجم تحاول أن تنصب خيمة تجارتها. قدمت لهما المرأة بعض الطعام والشراب وسمحت لتريستران بالنوم خلف متجرها.

كانت ليلة باردة صافية. جلست الفتاة النجم ترمق الفتى النائم.. مندهشة لأنها لم تعد تحمل نحوه ذات الكراهية السابقة..

فجأة سمعت حفيف أوراق خلفها.. نظرت للخلف فرأت امرأة سوداء الشعر ترمق تريستران مثلها. قالت المرأة:

ـ «ما زال يحمل جزءًا من السنجاب داخله..»

كانت لها أذنا قط وبدت أكبر سنًا قليلًا من تريستران.. أردفت:

ـ «أحيانًا أتساءل إن كانت الساحرة تحيل الناس حيوانات أم إنها تبحث عن الحيوان فى داخلنا وتحرره.. ثمة شيء فى شخصيتى أقرب لطائر ملون الريش..»

كان تريستران يتقلب ويغط.

ـ « يبدو طيبًا »

ـ « نعم .. أعترف بهذا »

قالت لها المرأة وهى تشير للقرية :

ـ « يجب أن أنذرك أنك لو تركت هذه القرية فلسوف تكونين بالنسبة للعالم مجرد صخرة هاوية من السماء . »

ارتجفت الفتاة النجم ولم تقل شيئًا .. ومدت يدها تتحسس السلسلة الفضية التى تربط المرأة .. وقالت :

ـ « ذات مرة قبض علىّ بسلسلة كهذه ثم حررنى فيما بعد فهربت منه.. الآن أنا مقيدة له بوعد شرف.. قوانين قومى »

قالت المرأة:

ـ « أنا أعرف عنك كل شىء.. أعرف من أنت.. أعرف الساحرة التى تلاحقك ولماذا تريدك. أعرف بحجر التوباز المعلق حول خصرك .. »

قالت الفتاة النجم :

ـ « لا أصدقك ولا أثق بك .. »

قالت المرأة :

ـ « كنت طائرًا فى العربة ورأيت التوباز حول خصرك .. رأيتك تستحمين فى النهر وعرفت من أنت »

ثم نهضت . ألقت نظرة أخيرة على الفتى النائم ثم ابتعدت .

سقط شعر تريستران على وجهه فانحنت الفتاة وأزاحت الشعر عن وجهه من جديد .. وتلمست خديه .

بعد ساعات نهض تريستران وقد رأى حلمًا جميلًا .. هز كتف الفتاة النجم النائمة جاره وقال لها :

- « هناك خبر جميل .. هل تذكرين فكتوريا فورستر ؟ »

- « نعم »

- « هى تنتظرنا عند فجوة الجدار .. سوف أذهب للقائها .. انتظرينى هنا »

تقلبت الفتاة ولم تقل شيئًا . اتجه للجدول فغسل وجهه وتمضمض ثم اتجه نحو القرية .

على الفجوة كان يقف المبجل مايلز كاهن وول ومستر بروميوس صاحب الحانة . بينهما كانت فتاة شابة ظهرها له.. صاح تريستران :

- « فكتوريا !! »

استدارت الفتاة فأدرك أنها ليست فكتوريا فورستر . الآن يتذكر أن عينى فكتوريا كانتا رماديتين .. لكن من هذه ؟ عيناها تترقرقان بالدمع لدى رؤيته ..

صاحت :

- « هذا أنت يا تريستران !! ... كيف استطعت أن ..؟ »

هنا أدرك من هى .. فصاح :

ـ « لويزا »

أخته ..

ـ « أنت كبرت جدًا منذ رحلت .. كنت طفلة »

ـ « وأنت كذلك .. هلم تعال .. »

ـ « لكنى ممنوع من اجتياز الفجوة .. و... »

قالت له :

ـ « بعد مقابلتك للرجلين أمس، ذهب ويستان للحانة وسكر .. وراح يتكلم عن المتسول الذى طرده والذى زعم أنه تريستران .. سمع أبونا بهذا فذهب للحانة ولقنه درسًا .. »

صافح تريستران الكاهن ومستر بروميوس فى حرارة .. قال له الكاهن :

ـ « لابد أنك رأيت عجائب كثيرة فى رحلتك .. يجب أن تأتى لى الأسبوع القادم لنشرب الشاى وتحكى لى »

مشت لويزا فوق الطريق الحجرى قاصدة حانة الغراب السابع ، هو يمشى معها. قال لها :

ـ « أنا مسرور جدًا لرؤيتك يا أختاه »

قالت :

ـ «كأنك لم تفارقنا بإرادتك من أجل التسكع .. سافرت دون أن توقظنى لتودعنى . فى عيد الميلاد أكلنا الإوزة والبودنج ، ثم راح أبى يبكى وهو يتذكرك .. بكينا جميعًا . ثم تمخط فى منديله العملاق . أنت أفسدت الكريسماس علينا »

ـ «اقبلى عذرى »

قالت له إنهما ذاهبان لحانة الغراب السابغ، وإن هناك شخصًا هناك يريد الكلام معه فى غرفة الجلوس .

فى الحانة كان عدد من الوجوه التى عرفها تريستران ..وقد هزوا رءوسهم محيين . بعضهم عرفوه وبعضهم لا . . راحت لويزا تنظر لتريستران ثم ارتجفت شفتاها . ولدهشته احتضنته بقوة حتى لم يستطع التنفس ثم تركته وفرت من الغرفة عبر الدرجات الخشبية .

قرع باب غرفة الجلوس ودخل ..

كانت الغرفة مزخرفة بأشياء غير معتادة، وعلى الجدار كانت عصا تلتف حولها أشجار اللبلاب أو هو معدن طرق بدقة ليشبه اللبلاب . كانت هناك أريكة ومنضدة خفيضة وبيانو ومقاعد جلدية عدة . وفوق مقعد منها جلست فكتوريا فورستر .

مشى تريستران نحوها ثم ركع على ركبته أمامها ...

قالت فكتوريا فى انزعاج :

ـ «أرجوك لا تفعل .. انهض .. فلتجلس على هذا المقعد .. هذا أفضل ..»

وتسلل نور الصباح عبر الستائر. فظهر شعرها الأشقر كتاج يحيط برأسها .. ثم أرجعت رأسها وقالت:

ـ «هناك أشياء يجب أن تعرفها ، وكلها عسير .. وأرجو أن تنتظر حتى أكمل كلامى . أولاً أعتذر لك لأن أنانيتى وحمقى هما من أرسلاك فى هذه الرحلة. حسبتك تمزح .. حسبتك أجبن من أن تحقق كلامك السخيف. عندما رحلت ومرت الأيام أدركت أنك جاد .. لكن الوقت كان قد تأخر... كان يجب أن أحيا مع فكرة أننى أرسلتك للموت ..»

كانت تنظر للأمام وهى تتكلم وأيقن تريستران أنها أجرت بروفة هذا الكلام فى عقلها مئة مرة فى غيابه. لهذا لا تتحمل مقاطعة النص الذى تحفظه ..

قالت:

ـ «لم أكن عادلة يا فتى المتجر .. لأننى حسبت رحلتك حماقة»

وصمتت وتمسكت بالمقعد حتى ابيضت رءوس سلامياتها .. ثم سألته:

ـ «أنت وجدت النجم ؟»

ـ «نعم .. النجم هناك فى المرج ينتظر .. لقد فعلت ما طلبته منى»

ـ «حسن .. هل سألت نفسك لماذا لم أقبلك فى تلك الليلة ؟ لقد قبلتك من قبل ...»

- « لماذا ؟ »

قالت وقد بدا صوتها أكثر راحة كأنها تخلصت من حمل كبير:

- « لأنه قبل ظهور النجم بيوم طلب منى روبرت أن أتزوجه .. عندما قابلتك ليلتها كنت أتمنى مقابلته فى المتجر لأخبره أنى موافقة وأن عليه أن يكلم أبى »

- « روبرت ؟ »

- « روبرت مونداى .. أنت عملت فى متجره. كنت أعيش فى حيرة بين خوفى عليك أن تموت فى أرض غريبة، وبين أن تعود بالنجم طالبًا منى أن أبر بوعدى »

سألها تريستران :

- « هل تحبين مستر مونداى ؟ »

هزت رأسها ورفعت رأسها وقالت :

- « لكنى عند كلمتى يا تريستران .. أنا مسئولة عما مررت به، ولو كنت تريدنى حقًا فأنا لك »

قال لها :

- « للأمانة .. أعتقد أننى المسئول عن كل شيء وليس أنت .. لن تندم على ما حدث ، حتى لو صرت عاجزًا عن النظر إلى المناجب بنفس النظرة . لكنك لم تعدينى بيدك لو عدت بالنجم »

ـ «أحقًا ؟»

ـ «لا .. وعدتنى بأى شىء أريده .. »

احمر وجهها كأنها تلقت صفعة فقال تريستران:

ـ «ما أريده هو أن تتزوجى مستر مونداى .. أرغب فى أن تتزوجى بسرعة هذا الأسبوع مثلًا .. وأرغب فى أن تسعدى معه .. »

تنهدت فى ارتياح ثم نظرت له :

ـ «هل تعنى ما تقول ؟»

ـ «تزوجيه مع بركاتى .. وسوف تعم السعادة»

دقة على الباب وصوت رجل :

ـ «هل كل شيء على ما يرام ؟»

قالت :

ـ «نعم .. تعال يا روبرت ... هل تتذكر تريستران ثورن ؟»

صافح تريستران الرجل بيد مبللة بالعرق وقال :

ـ «فهمت أنك ستتزوج قريبًا .. أهنئك»

ثم التفت نحو فكتوريا وقال :

ـ «لو أردت أن ترى النجم يا مس فورستر»

قالت فى برود :

ـ «مسرورة لأنك جئت يا مستر ثورن .. أرجو أن أراك فى حفل الزفاف»

ـ «لا شيء يسرنى مثل أن أكون هناك»

قالها وهو أبعد ما يكون عن الصدق.

* * *

ازدحمت الحانة قبل الإفطار، وهو شيء غير معتاد، لكن هذا كان بسبب السوق. وتكومت أطباق اللحم والبيض المقلي. وكان دونستان ينتظر ابنه عند البار، عندما رآه وقف وأمسك بكتفيه وقال بفخر:

ـ «فعلتها وعدت سالمًا !»

نظر تريستران لأبيه وبدا له أصغر حجمًا مما تركه. هل السبب هو أنه كبر؟

قال له أبوه إن أمه تنتظره فى المزرعة لتقدم له الإفطار .. فوافق هذا فى سرور. وسرعان ما غادر الرجلان الحانة ومشيا فى النهار الباكر. فى الطريق لهناك سأل أباه عن قصة مولده .. فحكى له أبوه كل شيء، بالطريقة التى نحكى بها قصة قديمة بلا تأثير على حياتنا.

وصلوا لبيت تريستران، حيث كانت أخته وعلى الموقد كان إفطار يتصاعد منه البخار. أعدته المرأة التى ظل طيلة حياته يحسبها أمه.

* * *

فرغت مدام سميل من إعداد المتجر وتأملت كل شيء فى غير رضا.

كان الزبائن قد بدءوا يفدون ..

قالت لنفسها :

ـ « أعداد أقل فأقل كل تسع سنوات .. صدقينى سوف ينتهى السوق عما قريب » .

قالت الفتاة ذات العينين البنفسجيتين :

ـ « يزول أو لا يزول .. المهم أن لدىَّ ثلاثة أسواق أتحرر بعدها »

ولوحت بالسلسلة الفضية التى تربطها .. فأدركت العجوز أنها متآكلة فى عدة أماكن .. بعض المواضع لم يعد يبدو كسلسلة ..

ـ « ماذا فعلت ؟ »

قالت الفتاة :

ـ « لم أفعل شيئًا .. لكن القمر فقد ابنته . وهنا يوما اثنين (مونداى) يلتقيان قريبًا .. سوف أتحرر »

* * *

جلست الفتاة النجم على عشب المرج راحت تنظر لفتحة الجدار والقرية خلفها.. من وقت لآخر يقدمون لها السجق والخمر لكنها ترفض ..

سألتها امرأة قروية عما إذا كانت تنتظر أحدًا .. فقالت الفتاة :

ـ « لا أدرى .. ربما »

- «هو فتى جميل مثلك .. أعتقد هذا»

قالت المرأة :

- «أنا أدعى فكتوريا فورستر»

- «وأنا أدعى إيفين .. إذن أنت فكتوريا .. شهرتك تسبقك»

قالت فكتوريا:

- «هو زوجى القادم إذن ؟»

تحسست إيفين التوباز المعلق فى خصرها ونظرت للفجوة الجدارية فى ارتباك.. نظرت للسماء الملبدة بالغيوم والتى استحالت للون الرمادي، وقالت :

- «تمنيت لو أن أبى هناك ..»

ونهضت .. لكن فكتوريا أوقفتها وراحت تحكى لها عن استعدادات الزواج وإجراءاته، الذى سيتم عصرًا بعد ستة أيام .. لحسن حظها أن موندای يعرف الأسقف .. ثم أشارت نحو رجل أشيب الشعر يدخن الغليون ووجهه متقلص كمن يعانى ألم أسنان وقالت :

- «هذا هو روبرت مونداى .. روبرت .. هذه إيفيان .. سأكون زوجته يوم الجمعة عصرًا . يوم الجمعة سيلتقى يوما اثنين (مونداى) ..!»

تساءلت إيفيان وهى تنتقى كلامها بحذر :

- «إذن لن تتزوجى تريستران ؟»

قالت فكتوريا :

ـ « لا »

ـ « حسن »

وجلست حيث هى .. ظلت جالسة عندما ظهر تريستران خارجًا من فجوة الجدار . بدا ممتقعًا لكنه سر عندما رآها وساعدها على النهوض..سألها:

ـ « هل استمتعت بوقتك أثناء غيابى ؟ »

ـ « ليس بالضبط »

ـ « لربما كان علىّ أخذك للقرية معى »

ـ « بالعكس .. أنا أعيش طالما أنا فى أرض الجان .. عندما أدخل عالمك أتحول إلى قطعة حجر صماء .. »

ـ « لكنى كدت آخذك للقرية أمس »

قالت :

ـ « نعم .. وهذا يثبت أنك أحمق عديم الفهم »

قال مصححًا :

ـ « ومغفل كذلك »

تلامست اليدان ومشيا معًا .. بدأت الريح تهب وتطاير قماش الخيام. وهطل مطر غزير بارد .. بحثا عن ملجأ تحت مظلة مكتبة مع عدد آخر من

البشر والمخلوقات..

قالت امراة مسنة :

ـ «سماء الماكريل.. لا تبقى جافة طويلًا ولا تبقى ممطرة طويلًا»

ابتسم وهز رأسه.. وقال تريستران للفتاة النجم :

ـ «قلت الوداع لأسرتى .. قلته لأبى وقلته لزوجة أبى التى كنت أحسبها أمى.. وأختى ... لن أعود .. السؤال اليوم هو كيف نعيدك للسماء .. سوف آتى معك»

قالت له :

ـ «لن تحب الحياة فى السماء.. فهمت أنك لن تتزوج فكتوريا»

ـ «لا»

هزت كتفها وقالت :

ـ «يسرنى أنك لن تتزوجها»

ـ «وأنا كذلك»

بعد لحظة صمت ضغط على يدها فقالت :

ـ «لا أعرف إن كنت تفهم .. نجم ورجل فان .. على الأرجح لن نظفر بأطفال أبدًا ..»

نظر لها وابتسم ولم يقل أى شىء..

كان قلبه يتواثب، وبالتأكيد لم يشعر أى واحد منهما بالمطر. رأى عينيها الزرقاوين تنظران له وأدرك أنه لن يتركها أبدًا . لم تعد السلسلة الفضية سوى دخان ورماد ... هبت الريح فلم يعد لها وجود.

* * *

قالت الفتاة للعجوز:

ـ «انتهت شروط خدمتى .. أنا حرة»

قالت العجوز بلهجة معدوم الحيلة :

ـ «ولكن ماذا أعمل ؟.. أنا مسنة .. لن أدير المحل وحدى ..أنت شريرة إذ تتخلين عنى»

قالت الفتاة :

ـ «تلك مشكلتك .. لكنى لن أصير جارية بعد اليوم.. أنا الليدى أونا .. ابنة السيد الثانى والثمانين لأسرة ستورمهولد .. لقد زال السحر. الآن ستطلبين الصفح منى وإلا كرست - بسرور بالغ - باقى حياتى فى القضاء عليك وتدميرك .. أنت وكل ما يمثل لك أهمية»

تبادلا النظرات ثم أشاحت العجوز بعينها ..

قالت كأن كل كلمة نشارة خشب مرة تغادر فمه ا:

ـ «أعتذر لك يا سيدة أونا عن اعتبارى لك جارية ..»

قالت السيدة أونا :

-«حسن .. أعتقد أنك مدينة لى مقابل خدماتى .. كل شيء له قواعده..
كان المطر ما زال يهطل بغزارة .. وقد وقف تريستران وإيفيان سعيدين جوار نار معسكر وسط مجموعة عجيبة من المخلوقات.

سأل الناس من حوله إن كانوا يعرفون رجلًا صغير الحجم قابله فى رحلاته. قال البعض إنهم قابلوه فى الماضى. لكنهم لم يروه فى السوق .

مد يده يعبث فى شعر الفتاة النجم المبتل، واندهش ؛ لأنه ظل معها كل هذا الوقت ولم يقع فى غرامها . قالت إنه أحمق، وبدا له أن هذا أروع لقب أطلقته امرأة على رجل .

سألها :

-«إلى أى مكان سنذهب بعد انتهاء السوق ؟»

قالت له :

-«لا أعرف لكن هناك مهمة واحدة أمامى»

-«حقًا ؟»

-«نعم .. حجر التوباز الذى رأيته .. يجب أن أعطيه للشخص الصحيح ، آخر رجل مناسب قطعت تلك المرأة فى الحانة حلقه .. ما زال معى لكن أتمنى الخلاص منه»

جاء صوت امرأة من الخلف يقول :

-«طالبها بما تحمله يا تريستران»

استدار فرأى العينين .. قال لها :

ـ « أنت الطائر الذى كان فى عربة الساحرة »

قالت له :

ـ « عندما كنت أنت السنجاب كنت أنا الطائر ، لكنى استعدت مظهرى وانتهت سنوات عبوديتى .. اطلب من إيفيان ما تحمله »

استدار لإيفيان وسألها :

ـ « هلا أعطيتنى هذا الذى تحملينه ؟ »

بدت عليها الدهشة ، ثم مدت يدها فى عباءتها ، وأخرجت حجر التوباز الضخم والسلسلة الفضية .

قالت المرأة لتريستران :

ـ « كانت لجدك .. أنت آخر واحد من آل ستورمهولد .. ضعها حول عنقك »

فعل تريستران هذا وعندما تلامس طرفا السلسلة ذابا معًا والتحما . قال :

ـ « رائعة »

قالت أمه :

ـ « هى رمز ستورمهولد .. لا أحد ينكر هذا .. أنت من دمه ؛ لأنك ابنى وكل أعمامك قد ماتوا .. أنت سيد ستورمهولد »

قال لها :

- « لكنى لا أريد أن أكون سيد أى شيء .. لا أريد سوى قلب حبيبتى »

وضغط يد الفتاة النجم على صدره ..

قالت المرأة فى نفاد صبر :

- « لم أطلب منك أى شيء طيلة 18 عامًا يا تريستران ثورن .. أما اليوم فأهم طلب لى أقدمه فتقول لا .. أهكذا تعامل أمك ؟ »

- « لا يا أماه »

- « لو لم تحب العمل فلترحل .. ما من سلسلة فضية تربطك بحكم ستورمهولد »

هنا قررت إيفيان أن تتدخل فسألت الأم :

- « هل لى الشرف أن أعرف من أنت ؟ »

قالت المرأة:

- « أنا السيدة أونا .. من آل ستورمهولد .. »

ثم مدت يدها لكيس معلق وأخرجت زهرة من زجاج، حمراء كأنها أقرب للسواد وقالت:

- « هذا أجرى بعد ستين عامًا من الخدمة .. ولسوف أقايضه بثمن هودج يأخذنا إلى ستورمهولد .. لأننا يجب أن نصل بشكل فخم مهيب . نحتاج

لحمالين وحراسة وربما بعض الفيلة .. »

قال تريستران:

ـ « لا »

ـ « لا ؟ »

ـ « يمكنك الذهاب بفيلة وهودج .. لكنى أنا وإيفيان سنذهب مشيًا »

أخذت شهيقًا عميقًا .. وفضلت إيفيان أن تبتعد لتترك له حرية الجدل.

مضت عبر السوق الذى بدأ يظلم. مرت جوار خيمة يتصاعد منها صوت التهليل والتصفيق. وينسكب منها الضوء كعسل ذهبي. هنا استوقفتها امرأة مسنة شائبة الشعر وعصابة على إحدى عينيها.. ركضت نحوها وطلبت الكلام معها.

سألتها:

ـ « عن ماذا ؟ »

كانت المرأة قد ضمرت إلى درجة تشبه الأطفال . تقبض على عصا وتنحنى حتى لتلامس الأرض. نظرت للفتاة النجم بعينها السليمة الزرقاء وقالت:

ـ « جئت آخذ قلبك معى »

ـ « أحقًا ؟ »

قالت العجوز :

ـ « نعم .. كدت أفوز به .. »

وضحكت من حلقها وقالت :

ـ « هل تذكرين ؟ »

كانت تحمل حملًا يشبه الحدبة على ظهرها .. وكان هناك قرن من عاج يخرج منه. تذكرت إيفين على الفور متى رأت هذا القرن ...

سألت العجوز :

ـ « أكنت أنت ؟ أنت والمدى ؟ »

ـ « نعم .. وكنت أنت لكنى بددت شبابى فى الرحلة .. كلما مارست السحر شخت أكثر »

قلت الفتاة :

ـ « ضعى إصبعًا علىّ ولسوف تندمين للأبد »

ـ « عندما تبلغين سنى فسوف تعرفين كل شىء عن الندم .. لا يشكل هذا فارقًا .. »

كان ثوبها شبه أحمر ، لكن لونه حال مع الزمن وتمزق .. وكان يتدلى من كتف واحدة .. ويظهر ندبة قديمة. أدركت إيفين أنها لم تحمل لهذه المرأة التى تريد قتلها سوى الشفقة..

قالت للمرأة :

ـ « القلب الذى تبحثين عنه لم يعد ملكًا لى .. »

سعلت المرأة كثيرًا .. وبذلت جهدًا عصيبًا .. فقالت الفتاة:

ـ « لقد منحت قلبى لشخص آخر »

ـ « الصبى .. ؟ فتى الحانة الذى كان مع وحيد القرن ؟ »

ـ « نعم »

ـ « كان عليك أن تعطيه لى .. أنا وأخواتى بحاجة له كى نسترد شبابنا .. الفتى لن يرعاه »

قالت الفتاة النجم :

ـ « هو أخذ قلبى .. فلندع الله ألا تقسو أخواتك عليك عندما تعودين من دون قلب »

هنا ظهر تريستران فأمسك بيد الفتاة وهز رأسه يحيى المرأة . قال للفتاة :

ـ « أمى ستعود بهودج .. ونحن سنمشى سنبتاع جوادين »

استدارت إيفيان للعجوز ، فقالت هذه:

ـ « أخواتى سيكن قاسيات .. لكن لديك قلبًا طيبًا يا فتاة . خسارة أننى لن أظفر به »

مالت الفتاة ولثمت العجوز على خدها المجعد والشعر النامى يخدش شفتها . ثم ابتعدت مع الفتى . فسألها :

ـ « من كانت تلك السيدة ؟ يبدو وجهها مألوفًا .. هل ثمة خطأ ما ؟ »

ـ « لا شىء . كنت أعرفها من الطريق »

خلفهما كانت انوار السوق والمصابيح وشموع الساحرات كأنها حلم أو كأنها السماء قد هبطت للأرض، وأمامها عبر المرج والفتحة فى الجدار التى لا يحيط بها حراس ، هناك كانت بلدة وول . هناك تتوهج المصابيح فى النوافذ . بدت لتريستران كأنها جاءت من عوالم ألف ليلة وليلة ..

أدرك أنه ينظر لوول لآخر مرة .. كان واثقًا من هذا ..

لم يقل شيئًا ... والفتاة النجم الساقط جواره . ثم مشيا معًا نحو الشرق ..

الخاتمة

اعتبر البعض ذلك اليوم من أهم أيام ستورمهولد . اليوم الذى عادت فيه السيدة أونا ، التى اختفت منذ زمن وقيل إنها ماتت .. سرقتها ساحرة وهى طفلة . عادت لأرض الجبل .

بدأت الاحتفالات عدة أسابيع قبل وصولها على هودج فى موكب من ثلاثة أفيال .

كانت سعادة السكان لا توصف لرؤية السيدة .

أعلنت أنها أنجبت طفلًا ، وبما أن أخوتها جميعًا قد ماتوا فهو الوريث الجديد للبلاد . سوف يصل قريبًا مع زوجته المختارة لكنها لم تستطع أن تعطى تاريخًا محددًا .

قالت إنها ستحكم كوصى على العرش إلى أن يصل ابنها . وكان حكمها يحمل الكثير من الرفاهية للبلاد ومنطقة جبل هوون .

بعد ثلاثة أعوام وصل غريبان يعانيان وعثاء السفر ، ووصلا إلى مدينة كلاودزينج .. حيث أقاما فى حانة وطلبا حمامًا دافئًا ،

لعدة أيام بقيا فى الحانة . وقبل الرحيل نظرت المرأة التى كانت شقراء جدًا حتى ليوشك شعرها أن يكون أبيض . نظرت للرجل فقال لها:

ـ « لابد أن أمى تحكم بكفاءة »

قالت له :

ـ « مثلك .. لو نلت العرش لفعلت مثلها »

ـ «أعتقد أنه مكان طيب نستقر فيه .. لكن هناك أماكن عديدة لم نرها .. لم نقهر كل الأشرار ولم نصحح كل الأخطاء .. هل تفهمين ؟ »

ـ «إذن يجب أن نترك رسالة لأمك »

وصلت رسالة ورقية لسيدة ستورمهولد يحملها صبي حانة. كانت مختومة بالشمع ففتحتها .. كانت بدأ بالتحية ثم بعدها:

لقد أخرنا العالم برغم إرادتنا .. توقعي قدومنا عندما ترينا

كانت تحمل توقيع تريستران ـ .. كان عليها قبول الأمر الواقع .

مرت خمسة أعوام ثم عاد المسافران للجبال. كانا مغبرين يلبسان أسمالاً ويعاملهما الكل كمتسولين .. فقط عندما يكشف حجر التوباز على صدره كان الناس يعرفون أنه ابن السيدة أونا .

بدأ الوريث الجديد يحكم .. وأصدر قرارات قليلة لكنها تمتاز بالحكمة . كان محاربًا شجاعًا ومفكرًا استراتيجيًا بارعًا. هزم العفاريت الزرق كما عقد صفقة مع نسور كراج .

زوجته إيفيان كانت قادمة من بلاد بعيدة .. لكن أحدًا لم يعرف من أين بالضبط . اختارت لنفسها غرفة على سطح القصر .. غرفة لم يسكن فيها أحد منذ زمن ، لأن صخرة هوت عليها . كانت غرفة بلا سقف مفتوحة على السماء، وكان القمر يسطع بقوة وحوله النجوم، حتى بدا أن بوسعك مد يدك والإمساك بنجم.

عاش الزوجان سعيدين .. ليس للأبد لأن الزمن يأخذ كل شيء فى النهاية . ثم جاء الموت ذات ليلة وهمس سره فى أذن سيد ستورمهولد .. كف عن الكلام واحتمله قومه إلى قاعة الأسلاف .. ولسوف يظل فيها للأبد .

صارت إيفين سيدة ستورمهولد .. وكانت ملكة عادلة قوية. لم تشخ وظلت شقراء كما هي. وكانت سريعة الغضب كما عرفها تريستران أول مرة. وكان فى مشيتها عرج بسيط لم يهتم أحد بمعرفة سببه. ومن حين لآخر كانت تتوهج فى الظلام. وعندما تسمح الأمور تصعد وحدها لأعلى جزء فى القصر وتقف لساعات وساعات . لا تفعل أى شيء وإنما تراقب فى صمت الرقصة البطيئة للنجوم الأبدية.

نيل جايمان

1990

روايات عالمية
مكتبة متكاملة لأشهر الروايات العالمية

82



غبار النجوم

فى الريف الإنجليزى الناعس وفى فجر العصر الفكتورى ، تتحرك الحياة ببطء فى مدينة (وول) - الجدار - التى سميت كذلك بسبب حاجز صخرى يفصلها عن مرج قريب . هناك حراس يمنعون الناس من عبور هذه الفجوة . وفى هذه البلدة وقع تريستران ثورن فى غرام فكتوريا فورستر الحسناء . لكنها كانت باردة متنائية ، كأنها نجم رآه يسقط من السماء فى أكتوبر . من أجل فكتوريا صمم تريستران على الحصول على هذا النجم ليهديه لها . هذا القَسَم الذى جعله يتجاوز السور فيدخل عالمًا يفوق . لم يكن الوحيد الذى يلاحق النجم . كان هناك آخرون يرون فى النجم الشباب والجمال أو مفتاح مملكة عظيمة أو أسرار السحر الأسود .

العدد القادم

قلبك ملك لى









08912009

